ديزيره سقال

معلقات ديزيره سقال السبع



الطبعة الثانية


مَكْتَبَةُ
لِسَانُ العَرَب
أ. علاء الدين شوقي
رابط بديل
lisanerab.com
www.lisanarb.com

ديزيره سقال

المعلقة الأولى

(أو معلقة ديزيره سقال)



مُتَفَتِّتًا بدَمِي
كأَنَّ دَمي يُقَسِّمُنِي
عَلَى رَجْعِ الثَواني...
مُتَفَتِّتًا
أَمْشِي إِلَيَّ كأَنَّني
نَجْمٌ يَسيرُ إِلَى المتَاهِ على افتِتَانِ.
وجهي شَظايا
واحتِرَاقِي يَنْتَشِي فِي القَلْبِ
مَخذولًا،
كَأَنَّ صَفاقَةَ الزَمَنِ
ٱلَّذي كَسَرَ التَفَكُّرَ

فِي كِيانِي
يَرْتَدُّ صَاعِقَةً على ذَاتِي؛
وذَاتِي تَحْتَوي ذَاتَيْنِ
مِنْ صَدْعٍ وصَدْعٍ...
يَحْتَويني جِسْمِيَ المنْهوكُ مُنكَسِرًا
ويَكسِرُني زَمَانِي:
شِلْوٌ هُناكَ كَأَنَّ فِيهِ
مَغاوِرَ الماضِي
وكَرْكَرَةَ الطُفولَةِ فِي المدَى...

شِلْوٌ يُلاحِقُ قَلْبِيَ المسْلُوخَ عَنْ بَدَنِي
ويَطرُدُني إِلى دُنْيَاهُ مَذْبوحًا،
وجسْمِي شاهِدٌ أَضْنَاهُ مَشهَدُهُ
وضَيَّعَهُ التَرَنُّحُ في الثَوَانِي —
أَتُراهُ كَانَ يَجُرُّ أَحْلامًا
عَلَى زَهْوِ السِّنينَ
تَسَاقَطَتْ مِثْلَ الرَذَاذِ على المدَى
أَوْ كَانَ يَحْلمُ بالخُروجِ
إِلَى سَديمِ الحُلْمِ
لَكِنَّ الزَمانَ رَماهُ بالآتِي
فصَدَّعَهُ

وفَتَّتَ عُنفُوَاني.
أَتُرَاهُ كَانَ رسالَةً
لِمدًى يُراسِلُ نَفسَهُ بالتَوْرِياتِ
وَتَكْتُبُ الزَفَراتُ سِيرَتَهُ،
وَتَنشَطِرُ الجراحُ عَلَيْهِ
مِثْلَ تَشَعُّبِ الطُرُقاتِ
أَوْ كالشِعْرِ
يَنسُجُنِي على أَلَقِ القَصيدَةِ
مُستَحيلًا كالقَصيدَةِ وَهْيَ تَنْسُلُ في المعاني؟ –

جسَدِي القَصيدَةُ
حينَ سَطَّرَتِ التَجارِبُ حَرْفَها
وَسَقَتْ طَلاوَتَها عَروضُ الحُبِّ،
أَوْ سَقَتِ النُجومُ خَيالَها...
أَيَكونُ، بَعْدُ،
إذا ٱتَضَيْتُ غرابَةَ الأَحْلامِ،
أَنْ تَرْقَى إِلَيَّ بَلاغَةُ الأَعْمَاقِ
حِينَ تُغَمِّسُ الكَلِماتِ بالأَشْوَاقِ
أَوْ
أَرْقَى إِلَى وَهْمٍ
تَفَتَّحَ فِيَّ أَكْوَانًا

وَأَجْهَلُ مَا عَرَاني...؟
أَيَكوُنُ، بَعْدُ،
مَتى سَكِرْتُ بوحْدَتي،
أَنْ أَسْتَكِينَ عَلَى الفَرَاغِ
فَأُخْرِجَ المسْتُورَ مِنْ ذَاتِي
وَأَقْرَأَ مَا تَشَظّى فِي جَوَانِبهَا
مِرارًا مِنْ حَيَاتي
أَوْ أُطارِدَ رِحْلَتي في العُمْرِ
وَهْوَ يَخُطُّ أَعْماقِي
ويَصْنَعُ لِي تَفاصيلَ الكِيانِ،
وأَمُرَّ في عُمْري عَلَى شَذَرَاتِيَ الأُولَى،
أَمُرَّ عَلَى عَذابَاتِي وَأَفْرَاحِي
وَأَكْتَشِفَ المعاني؟
أَأَمُرُّ، بَعْدُ، عَلَيَّ
حِينَ تَكَشَّفَتْ ذاتِي لِذاتِي

ثُمَّ أنْتَزِعُ الفَراغَ فرَاغَهُ
فَأَعُودَ مِثلَ يَمامةٍ
عادَتْ عَلى أَعْقابِها
وَتَكَشَّفَتْ فِي عَينِها حُجُبُ الزَمانِ؟
يا صَوْتِيَ المغْلولَ في وَجَعي
وَفِي فَرَحِي
وَفِي سُحُبِ الزَمانِ
وفِي المكانِ،
يا صَوتِيَ الآتِي مِنَ الأَعْماقِ
مُدَّ إِلَيَّ دَرْبًا
تَزْرَعُ النَجماتِ فِي أَمْدائِهَا
وَتَصُوغُ مِنْها أَبْجَدِيَّةَ شِعْرِها،
وَمِنَ الكِيَانِ مِدادَهَا،
يَا صَوْتِيَ الآتِي إِلَيَّ
تَعَرُّ مِنْ جُثَثِ الحُضُورِ

وَهُبَّ...
هُبَّ كَأَنَّ في ذاتِيَّ
وَجهَيْنِ ٱستَقَامَا
تَحْتَ أَشْجَانِي وأَقْلامِي
وَفي صَدْعِ الأَمانِ...

لا شَيْءَ فِيَّ سِوايَ.
وَحدِي فِي فَراغٍ أَبْيَضٍ
(ذاتِي التي ٱنْصَدَعَتْ فَراغٌ أَبْيَضٌ
وفَراغُهَا ملأَ الزَمانَ) —
أَنا الزَمَانُ،
أَنَا المكانُ،
أَنا الفَرَاغُ والامْتِلاءُ
وكلُّ مَا بَيْنِي وبَينِي
خارِجٌ مِنّي إِلَيَّ.
أَنا الغَريبُ أَمامَ ذاتي
وَالمدَى حَرْفٌ

يَذوبُ عَلَى قَصيدَتِها
ويَفْتَحُ لِي حَيَاتي،
وَتُشَرِّعُ الدُنيا لِدُنْيَايَ
التي انْفَتَحَتْ لِخاطِرَتي،
وَيَنْسَفِحُ الصَدَى مِنّي
ويَرْحَلُ فِي صُدُوعِي راعِشًا:
لُغَتي تَذوبُ لِتَقْرَأَ الأَشْيَاءَ
فِي أَعْماقِها
وَلِتَغْزُوَ التَكوِينَ
مِثْلَ بشارَةٍ أُولَى
فَأَجْمَعَ فِي قَصيدَتِها غُزَاتِي
وَأَمُرَّ مُنفَتِحًا كَصَفْحَاتِ الكِتَابِ
تُهَنْدِسُ الفَوْضَى
وَتَقْرَأُ فِيَّ فَوْضَاها
وَتَجْعَلُني إِلَهًا يَسْكُبُ التَكْوينَ

مِنْ غَيْبِ الحُرُوفِ
ويَرْصُفُ الكَلِماتِ خُلْدًا
في الحَيَاةِ وَفي المَماتِ...
ما كانَ أَصْعَبَ أَنْ أَغُوصَ عَلَيَّ!
أَشْهَدُنِي هُناكَ...
كأَنَّ جسْمِي لَيسَ جسْمي
أَوْ كَأَنَّ على مُشاهَدَتِي
غُبارًا
ذَرَّهُ الزَمَنُ المديدُ...
أَنَا غَريبٌ في حَيَاتِي
مِثْلَ وجْهٍ ضَيَّعَ القَسَماتِ
وانْتَحَرَتْ عَلَيْهِ حَياتُهُ
فَٱسْتَوْلَدَ الأَسْمَاءَ والأَشْيَاءَ:
كُنْتُ الخَالِقَ المخْلُوقَ
أَكْتُبُ مَا وَلَدْتُ مُطارِدًا أَمْسِي،

وَتَكْتُبُنِي لِذَاتي،
ومُحَدِّثًا نَفْسِي أُسَائِلُهَا وَتَسْأَلُنِي:
لِمَاذا غُرْتُ فِي لُغةٍ مِنَ الأَضْوَاءِ
شَعَّتْ بَيْنَ أَضْلاعِي
فَأَوْرَقَتِ الحروفُ عَلَى قَصَائِدِها
وَشَلَّأَنِي الزَمَانُ
فعُدْتُ مُنقَسِمًا عَلى ذَاتِي بذَاتِي؟
كَيفَ أَحْلمُ بالسُّكُونِ
وَحَوْلِيَ الدُنْيَا ضَجيجٌ مُسْتَحيلٌ؟
كَيْفَ أَقْرَأُ في أَنَاشيدِ الخُلُودِ
صَفَاقَةَ الزَّمَنِ الطوِيلِ
وَأَرْتَدِي لحَظَاتِهِ حَتّى تُوَارِيَنِي
وَأَمْضِي فِي ذُهُولِي، مُرْهَقًا،
تَأْوِي إِلَيَّ قِراءَةُ اللَحظَاتِ
ثُمَّ تعودُنِي، إِنْ غِبْتُ مُنْكَسِرًا،

فَأُبْعَثُ فِي رُفَاتِي؟
وَإِذَا اكْتَشَفْتُ
وَطارَ بي نَسْرُ اليَقِينِ
نَظَرْتُ مَعرِفَتي
ولا شَيْءٌ سِوايَ بها
وَمَا حَوْلِي سِوايَ
كَأَنَّمَا الدُنْيَا فَرَاغٌ فاتِنٌ،
وَكَأَنَّمَا الأَشْيَاءُ ذَاتٌ مِنْ ذَوَاتي
تأوِي إِلَيَّ غريبةً
وَأَنَا غريبٌ في حَياتي؟

يَكْفِي الكِتابُ لكَي أَقُولَ:
تَجَمَّعَتْ نَفْسِي.
وَلَكِنَّ الحُروفَ تشُدُّنِي للآخَرينَ
فلا أَرَى فِيهِمْ سِوَايَ،
ولا أَرَى إِلاّيَ في لُغَتي:
أَنَا مَلأٌ وَحيدُ!
وَأَنا اللُغاتُ،
أَنا المدَى،
وَأَنَا التَمَوْضُعُ في الزَمَانِ وفي المكَانِ،
أَنَا البدايَةُ والنِهَايَةُ
والفَراغُ والامتِلاءُ،

أَنا الحروفُ،
أَنا النشيدُ...
تَتقَاطَعُ الأَكْوَانُ فِيَّ
وَأَرْتَدِي أَزْمَانَهَا لَونًا وَصَوْتًا...
غَيْرَ أَنِّي، حينَ يَكْسِرُنِي الزمانُ،
أَصيرُ كُلَّ الناسِ في الدُّنْيا —
أَنا مَلأٌ وَحيدُ!

هَلْ كَانَ يَكْفِينِي الزَّمانُ لِكَيْ أَرُدَّ مَلامِحِي
أَوْ أَسْتَسِيغَ عَلاقَتِي بالوَقْتِ؟
هَلْ كَانَتْ "أَنَايَ" تَجِيءُ
مِنْ سَمْتٍ بَعيدٍ
يَرْتَدِي لَوْنَ الوجُودِ
وَتَنْتَهِي فِيهِ طريقي؟
لا شَيْءَ يَكْشِفُنِي عَلَى الأَشْيَاءِ مِنْ حَوْلِي،
وَلَكِنِّي أُكَاشِفُهُا شُجُونِي
ثُمَّ أَفْتَحُهَا لِتَرْحَلَ في عُروقِي.
كُلُّ المدَى مُتَرَبِّعٌ فِيَّ:
اُلْمَكانُ وَسَاكِنُوهُ،

وَالزَمَانُ، وَرَقَّةُ الأَنْسَامِ،
وَالبَسَمَاتُ، والدَمَعَاتُ،
والحُرَقُ التِي تَأْوِي إِلَى الأَعْمَاقِ،
وَالشَغَفُ الذِي يَغْزُو الذَوَاتِ وَنارُهُ...
كُلُّ المدَى مُتَرَبِّعٌ...
وَمَدَايَ أَضْيَقُ مِنْ رَنِينِ الصَّمْتِ فِي قَلْبِي
وَمِنْ شَجَنِي الرَقِيقِ...
كُلُّ المدَى يَلْتَمُّ فِيَّ
كَأَنَّهُ إِيقَاعُ أُغْنِيَةٍ
تُوَشِّحُهَا الحُرُوفُ،
وَتَرْتَوِي مِنْ أَبْجَدِيَّةِ كَائِنِي،
وَأَصُوغُ مِنْهُ تَساؤُلاتِ الذاتِ:
مَنْ أَنَا؟
أَيُّ ذاتٍ تَعْقُبُ الكَلِمَاتِ؟
أَيُّ غَرابَةٍ تَلْتَمُّ فِي الحَرْفِ العريقِ؟

وَأَنَا أَكُونُ
إذا رَفَعْتُ قَصيدَتِي
فِي وَجْهِ هَذا الكَوْنِ
وَالْتَمَّ الكِيانُ عَلَى بَرِيقي.

هَلْ كَانَ يَكْفِينِي
مُرُورُ الحُلْمِ في عَينَيَّ
والأَلْوَانُ وَهْيَ تُواكِبُ الأَحْلامَ
حِينَ يَهِيجُهَا زَمَنٌ ثَقِيلُ؟
ذَيّاكَ لَوْنُ طُفولَتِي
يَأْتِي إِلَيَّ بأَبْيَضٍ:
أُمّي... أَبي... جَدّي... وجَدَّتِيَ الَّذِينَ
تَجَمْهَرُوا حَوْلِي،
وَعادُوا فِيَّ أَصْوَاتًا وَأَخْيلَةً تَدَاعَتْ
ثُمَّ طَرَّزَهَا لِقَاءٌ مُسْتَحِيلُ...
وَتَواتَرَتْ صُوَرُ المرَاهَقَةِ

التِي حمَلَتْ "أَنَايَ"
عَلى ٱنْفِلاتِ الحُلْمِ...
يَكْفِي أَنْ أَرَى لِأَرَى "أَنَايَ"
تَناسَلَتْ فِي ذاتِهَا
وَتَفَتَّحَتْ فِيَّ التَجارِبُ
مِثْلَ أَزْهَارِ الحُقُولِ،
وَعادَنِي صَوْتٌ مَلُولُ
يَأْوِي إِلَى ذَاتِي مِنَ الزَمَنِ البَعِيدِ،
وَأَلْتَقِينِي فِي مَفارِقِهِ
وُجوهًا وَزَّعَتْ أَحْلامَهَا فِي ذَاتِهَا
وَتَوَاصَلَتْ بَيْنَ الثوَانِي:
كُلُّ ثَانِيَةٍ تُحَمِّلُهَا بِأَلْوَانٍ،
وَيَرْقُصُ حَوْلَهَا حُلُمٌ جَمِيلُ.
زَمَنٌ يَمُرُّ عَلَى الزَمَانِ
وَفِي مَدَايَ غَرَابَةٌ،

وَمَدَايَ أَغْرَبُ مِنْ ذُهُولِ النَاسِ

فِي قَلْبي.

أَنَا مَلأٌ وَحِيدٌ

تائِهٌ فِي قِمّةِ الدُنْيَا.

أَنَا الدُنْيَا

وَكُلُّ ضَيَاعِهَا العَارِي.

أَنَا الصَّبْرُ الثَّقِيلُ

مُتَرَدِّدًا بَيْنَ ٱنْسِكَابِ الوَقْتِ فِي ذَاتِي.

أَنَا الحَرْفُ المضِيءُ،

أَنَا الذُّهُولُ...

أَنَا الذُّهُولُ...

تَكْفِي القصيدةُ
كي أَرُدَّ مَلامِحِي.
وَجهِي علَى وَجْهِي أُلُوفُ الناسِ.
وَجْهِي وَطْأَةُ الوَقتِ الثقيلِ،
ووجْهِيَ الماضي الذي لَمْ يَنتظِرْ...
وَأَنا حروفٌ في كِتَابِ العُمْرِ،
مرآةٌ مِنَ الهَذَيَانِ
أَعْكُسُهَا وتَعْكُسُني
وَأَقْتَنِصُ الحياةَ مِنَ الظلامِ.
تَكفي القصيدَةُ
كَيْ أَرُدَّ مَلامِحِي

ومَلامِحَ الزَمَنِ الذي انْكَسَرَتْ هُوِيَّتُهُ.

أَمُوتُ... أَعيشُ...

ثُمَّ أَمُوتُ... ثُمَّ أَعِيشُ...

صَعبٌ أَنْ تصيرَ قصيدةً في هذِهِ الدُنيا

وصَعْبٌ أَنْ تَقومَ مِنَ الحُطامِ!

أَلحاضِرُ المُمْتَدُّ في شَجَنِ العَذابِ
يَحوكُ في قلبي نَسيجَ العَنْكَبوتْ
ويُلَوِّنُ الأَلَمَ المضَعْضَعَ بالصَدَى
فَيَضيعُ وَجْهي
في وُجوهٍ أُتْرِعَتْ وَقْتًا
وآثَرَتِ السُّكُوتْ...
وَجْهي خَريطَةُ عُمرِيَ المسْكونِ بالأَحْلامِ
يَنسُجُها حُروفًا
مِثْلَما تَشْتَدُّ روحِي
فِي ضَبابِ قَصيدةٍ
وَتَذوبُ فيها أَوْجُهًا

مَحبوكَةً بالسِرِّ.
وَجهي يَفتَحُ العُمرَ الرَهيبَ
عَلى ٱمتِدادِ الشِعْرِ
أَوْ يَلتَمُّ فِيهِ تَراجِمًا
في أسْطُرِ الوقتِ الصَّموتْ،
ويردُّنِي وَهْجًا
على وَهْجِ الزَّمانِ المستَطيلِ
مَتى تَثاءَبَتِ الثَواني
واسْتَمَعْتُ إِلَى غَطيطِ الصَمْتِ
فِي أَعْماقِ أَيّامي.
وَلَكِنّي أُسائِلُ صَمْتِيَ المغموسَ
بالأَرَقِ الطَّويلِ:
مَنِ الَّذي يأْتِي إِلَيَّ
وَيَلْتَقيني مُسْتَحيلًا في طَريقِ العُمْرِ
تَرْجُمُهُ تَباريحُ الدُروبِ

فَلا يُمِيتُ ولا يَموتُ؟
أَأَظَلُّ في قَلبي ٱحْتِباسًا
مِنْ ضَميرِ الغَيْهَبِ المسْكونِ
بالوَقْتِ الثَّقيلِ،
أَظَلُّ فِي سَكَناتِ هَذا اللونِ مُشْتَعِلًا،
ومُشْتَعِلًا أَنامُ عَلى "أَنايَ"
مُضَرَّجًا بتَجاربي،
ومُضَرَّجًا بقَصيدَةِ الزَمَنِ ٱلَّذي يَغْتالُني
فأَعودَ مُقْتَصًّا منَ الأيّامِ
ما ٱسْتَلَبَتْهُ مِنْ ذاتي
لأُشْعِلَهُ بَخورًا في حُقولِ الشِّعْرِ
أَعْلَى مِنْ جُنونِ الوَقْتِ؟
آهٍ، أَيُّها العُمْرُ الذي يَخْتالُ
كاللِصِّ المقَنَّعِ
في دُجُنّاتِ البيوتْ!

مَرْمَايَ مِثْلُ الجُرْحِ في جُدْرانِ لَحْمي
أو... صدًى،
وطُفولَتي شَجَنٌ لَذيذٌ.
كُلَّمَا أَخْرَجْتُها مِنْ قلعَةِ النِسْيَانِ نَحْوي
عانَقَتْنِي
وَٱرْتَدَتْ لَوْنِي
وهَدْهَدَها مَنامي:
سَأَصِيرُ مَا حَلِمَتْ بهِ ذَاتِي،
أَصِيرُ مَدًى مِنَ الإِشْعَاعِ
أَوْ رَجُلًا
يَرُدُّ الوَقْعَ للدُّنْيَا.

أَصِيرُ مَجَرَّةً
في سَمْتِ هَذا العَلَمِ المَنْهوكِ
أوْ
شِعْرًا يُرَنِّمُ في القَتَامِ...
لَكِنَّنِي أَنْسَاقُ فِي مُسْتَنْقَعِ الزَمَنِ الهَجينِ
وأَحْتَمِي بالوَقْتِ.
تُخْرِجُنِي "أَنَايَ" مِنَ الزَمانِ
إلى الزَمَانِ،
وَأَرْتَدِيها كُلَّمَا سَاءَلْتُ نَفْسِي:
"مَنْ أَنَا؟"
وَأَغيبُ في شَجْوِ الفَراغِ اللازَوَرْدِيِّ
الذي زَرَعَتْهُ ذاكِرَتي
فَأَحْمِلُنِي إِلَى نفسِي
وَيَنْخُرُنِي الصَّدَى... حَتّى عِظَامِي.
أَأَظَلُّ فِيَّ مُطَارَدًا

يَعْدُو بقَلْبي شَوْقِيَ اللَهّاثُ
حِينَ أَغِيبُ فِي حُلُمٍ
وَتَتْرُكُنِي القَصِيدَةُ لاهِثًا
أَرْتَاحُ وَحْدِي فِي ٱعْتِصَامي؟
مَرْمَايَ مثلُ الجُرْحِ يُخرِجُنِي إِلَيْهِ
فأَرْتَديهِ وارِفًا
وَأَطِيرُ فِي فَلَكِ الفَرَاغِ مُتَوَّجًا بالصَّمْتِ
أَحْمِلُ ذاتِيَ الوَلْهَى إِلَى ذَاتِي
وَأُخرِجُنِي إِلَيَّ
فَأَصْدَعُ الأَشْياءَ بالأَشْيَاءِ
والجُدْرانَ فِي ذاتِي
ويُعْجبُنِي ٱرتِطَامي.
سَأَصِيرُ مَا حَلِمَتْ بهِ ذاتِي،
أَصِيرُ قصيدةً أَقْوى مِنَ الزمَنِ الهَجينِ
تَرُدُّنِي نَغَمًا على دُنيا الأَنَامِ —

أَوّاهُ،

ما أَقْساكِ يا ذاتي!

أَموتُ... أَعيشُ...

ثُمَّ أَمُوتُ... ثُمَّ أَعِيشُ...

صَعْبٌ أَنْ تَصِيرَ قَصيدةً في هذِهِ الدُنيا

وصَعْبٌ أَنْ تَقومَ مِنَ الحُطامِ!

أَلليلُ أَقسَى مِنْ صراخِ مرارَتي
ومَدايَ ظِلٌّ مُتْعَبٌ في وَحدةٍ
يَلْتَاعُ مِنْ دَمِهَا الضَّمِيرُ.
مَاذا، تُرى، تَستَقْرِئُ الدُّنْيا عَلَى شَجَنِي،
وَوجْهِي ذائبٌ في الصَّمْتِ؟
وَجهِي مُرْهَقٌ
يَنْصَاعُ للأَحْلامِ
أَوْ يَشْتَفُّهُ وَجْدٌ قَصِيرُ.
وَجْهِي هُلامٌ سَالَ عَبْرَ الحُبِّ
في شَغَفٍ
وَذَاتِي صَدَّعَتْهَا سُلْطَةُ الزَّمَنِ الخَبيثِ

وَكَوَّمَتْ ذَاتَيْنِ مِنْها في ضَمِيري
كُلُّ ذَاتٍ شَجَّهَا حُبٌّ
فأَرَّحَتِ العَذَابَ،
وَكُلُّ ذَاتٍ ذَاقَتِ الفرَحَ
ٱلمزَغْرِدَ في الهُيَامِ
وَتَاهَ فِي أَحْلامِهَا الأَبَدُ الصَغِيرُ.
أَوّاهُ يا ذَاتِي وذَاتِي...
كُلَّمَا أَرَّحْتُ للأَشْوَاقِ عُمْرًا
رَدَّنِي العُمْرُ الثَّقيلُ إِلَى القَرارِ
وَرَاحَتِ الأَشْوَاقُ تَصْدَعُنِي
وَراحَ يَقِينُ عَيْنَيْهَا يُحاصِرُنِي
ويَسْكُبُنِي عَلَيْهَا غَيمَةً
مِنْ نَسْمَةِ الفِرْدَوْسِ
أَوْ يَرْقَى إِلَى قَلْبِي أَثيرُ
وَيُعيدُنِي فِيهِ إِلَيَّ

كَأَنّمَا لا شَيْءَ يَثْبُتُ.

لا وُجُودَ وَلا غِيَابَ

وَلا مُراوَحَةٌ

عَلَى مَلَكوتِ هذا القَلْبِ...

كلُّ الكَوْنِ سالَ أَمَامَهُ

وَتَلَوَّنَتْ ذاتِي بذَاتِي —

كُلَّمَا غَادَرْتُها رَجِعَتْ

وعُدْتُ إلَيَّ...

تَسْكُنُني "أَنَايَ"

كأَنَّهَا فِيَّ المصيرُ.

لا شَيْءَ يَثبُتُ...

لا وجودَ ولا غِيابَ

ولا "أَنَايَ" "أَنايَ" أَوْ عَيْناكِ عَيناكِ —

ٱسْتَكينِي فِيَّ، يا أَبَدِي،

وَرُدّيني إِلَيَّ

لَعَلَّ فيكِ شَفاعَةً تُؤْوِي ضَيَاعي،
أَوْ لَعَلَّي،
بَيْنَ أَحلامٍ وأَحْلامٍ،
أُفيقُ عَلَيْكِ مرتَعِشًا
فَتَأْخُذَنِي إِلَى الفِرْدَوْسِ عَيْناكِ اللتَيْنِ
تَفَتَّحَتْ غابَاتُ لَوْزِهِما،
وذَاتِي فِي المدَى وَجَعٌ مُثِيرُ.
لَمْ أَجدْ وَقْتًا لأَكْتُبَ إِسْمِيَ العَبَثِيَّ
في عَيْنيكِ،
لكِنِّي قَرَأْتُ بهِ النَّدَى
وَسَمِعْتُ رَجْعَ قَصِيدَتِي فِيهِ
كَأَنَّ الأَبْجَدِيَّةَ لَوَّنَتْ إِيقاعَها
في عُشْبِ عَيْنَيْكِ.
أَنْتَظَرْتُ "أَنايَ" تُحْضِرُنِي إِلَيَّ
ولَمْ أَكُنْ!

وَسَّعْتُ صَوْتِي في المدَى
فَتَقَلَّصَتْ دُنْيَايَ فِي عَصَبِي
وَأَسْدَلَ رُؤْيَتِي فَيْضٌ كَبيرُ:
لا شَيْءَ يَثْبُتُ.
لا وُجُودَ... ولا غِيَابَ...
ولا مراوَحَةٌ...
عَلى مَلَكوتِ هَذا القلْبِ.
كلُّ الكَوْنِ أَسْكُنُهُ ويَسْكُنُني
وَيَرْشَحُ مِنْ تَعالُقِنَا العَبيرُ،
وَأَظَلُّ فِيهِ قَصيدَةً
تَخْتالُ في دَمِها —
أنا ألَقُ الحضورِ،
أَنَا المصيرُ...
أَنَا المصِيرُ...

تأوي إلَيَّ تَجارِبٌ
هَصَرَتْ ضَميرَ الوَقْتِ
في حُمّى غِيابي
والمدى – كلُّ المدى - حُلْمٌ
يُراوِحُ في حُرُوفِي
حِينَ يَحْتشِدُ الزَمَانُ على القَصيدَةِ
شامِخًا،
لكِنّهُ تَتَقَزَّمُ الأَطْرافُ فِيهِ
وَيَرْتَدي لَوْنَ السَّرابِ
وَيَصيرُ لَفْحًا مِنْ هدوءِ اللَّوْنِ
عَبْرَ هُبوبِ تاريخي،

وَيَحْمِلُهُ الضَّبابُ عَلى ضَبابِ...
يَتَناسَلُ الوقْتُ الطويلُ
على جُنونِ اللَّوْنِ في حَرْفِي
وتَنْحَلُّ الحروفُ صَدًى لِأَلْوانٍ
تَمُرُّ علَيَّ مِثْلَ الوَحْيِ
حَينَ تُكاشِفُ الأحلامُ ذاتِي سِرَّها
وَيرُدُّنِي الوَحْيُ المجَنَّحُ
هَمْسَ أصداءٍ تمرُّ كَهَسْهَساتٍ
لَونُها لَوْنُ الترابِ
لِتُطِلَّ منْهُ نَغْمةً سِرّيّةً
يَقتادُها صَوْتُ القصيدَةِ نَحْوَ ذاتي
أَوْ تُقَلِّصُ جانِحَ الأَبَدِيَّةِ الممْدودَ فِيَّ
وَأَسْتَسيغُ النَّغْمَةَ البيضَاءَ
ترحَلُ في ٱضطِرابي...
وتَسيلُ ذاتي في عُروقِ الشِّعْرِ

خَمرًا لازَوَرْدِيًّا
يُهَدْهِدُ أَنَّةَ الصَّوْتِ العَميقِ
وَيَصْطَفيني مِثْلَ لَحْنِ مَلائِكِ الفِرْدَوْسِ
إِذْ يَتَكَسَّرُ الوقْتُ المُرائِي
في الحروفِ، وعِنْدَ بابي.
لا شَيْءَ فِيَّ سِوايَ...
لا مُتَكَسِّرًا في الوقْتِ غَيْرُ الوَقْتِ،
لا حيًّا سِوى أَلَقِ القَصيدَةِ فِي المدى —
ذاتِي المدى،
ذاتي الشَّرارةُ في ارتعاشاتِ المدى،
وأَنا وَحيدٌ في غِيابي...

مُتَماسِكٌ بدَمي
ومُنحَلٌّ علَيْهِ كأَنّني تِرْياقُهُ.
آوِي إِلَيَّ
وأَسْتَرِدُّ ملامِحي؛
لكِنّني في غَمْرةِ الأشْياءِ
أَعْرَقُ في الثواني،
ويَمُرُّ بي زَمنٌ، صَفيقٌ
هامِسًا: "شاخَتْ يَداكَ،
يُها العَريقُ،
وغارَ فيكَ الضوْءُ،
وانحَفَرَتْ بجِلْدِكَ دَمغَةُ العُمْرِ.

ٱنتَظَرْتَ عَلى المسافَةِ شامِخًا،
لكِنَّ صَمْتَكَ شَقَّهُ الزَمَنُ القَوِيُّ
وَرَضَّهُ هَوْلُ الزَمانِ..."
آوِي إِلَيَّ وَأَسْتَرِدُّ ملامِحي:
وَحْدي المدى...
وَحْدي الزَّمانُ
وكُلُّ مَا حَولي هَباءٌ ضائِعٌ...
وَحدي المكانُ
وَفي جهاتِي تَسْكُنُ الأيّامُ
والأحلامُ والدُنيا،
ويَسْجُدُ لي مَكاني...
وَأَنا رَنينُ الوَقْتِ في قَلْبي
يَمُرُّ علَيَّ مَذهولًا
وَأَبْقى هائِلًا
في حَرْفِيَ المسكونِ

بالأَلَقِ السَّماوِيِّ العَميقِ،
أَرُدُّ وَجهي أَلْفَ وَجْهٍ في المدى،
وَأَرُدُّ جِسْمي في القَصيدَةِ
كُلَّ أَجْسامِ البَرايا
وَهْيَ تَنْسُلُ في المعاني...
وَأَنَا السَّنا بالشِّعْرِ مؤْتَلِقًا،
أَنا رَجْعُ الصَّدَى
فِي ذاتِيَ الظَّمْأَى إِلَى أَفُقِ الخُلودِ،
أَنَا المدى والعُمْقُ
في طُرُقاتِيَ الملأى بذاتي
وامْتِداداتِ المكانِ
وفي الزَّمانِ...

ويَزورُنِي الموتى،
يُلَوِّنُهُمْ غِيابٌ حامِضٌ،
وبصَوْتِهِمْ صَمْتٌ مَريرُ.
وِطْءٌ أَشَدُّ رَهافَةً
مِنْ مَلْمَسِ الغَيْمِ.
ٱنتَظَرْتُ حُضورَهُمْ،
وَتَقاسَمَتْنا هَمْسَةٌ سِرّيّةٌ.
يا وَقْتُ، كَسَّرَكَ الرَّدَى
وَتَضاحَكَ المَوْتَى مِنَ الزَّمَنِ الثَّقيلِ –
يَزُورُنِي المَوْتَى
ويَحْمِلُهُمْ غِيابٌ أَوْ حُضورُ.

لا فَرْقَ فِي أَلَقِ الفَرَاغِ السَّرْمَدِيِّ...
تُرَى يُقيمُونَ المآتِمَ فِي عَوالِمِهِمْ
وَيَحْتَفِلُونَ بالذِكْرى
إِذا حَمَلَ الغِيابُ نَسيبَهُمْ؟
يا مَوْتُ، هَلْ يَتَعَطَّرُ المَوْتَى؟
وهَلْ يَتَكَلَّمُونَ
إِذَا تَذاكَرَ بعْضُهُمْ ما كانَ؟
هَلْ يَسْتَذْكِرُونَ الأَهْلَ
أَوْ يسترْجِعُونَ الذِكْرَيَاتِ؟
وَهَلْ هُمُ يَتَنَدَّرُونَ
إِذَا أَحَسّوا بالملالَةِ مِثْلَنا؟
كَسَرَتْكَ، يا مَوْتُ، القصائِدُ،
قَوَّضَتْكَ عَرائسُ الشِعْرِ.
ٱسْتَلَلْتُ "أَنَايَ" مِنْكَ،
وَضَجَّ في قَلبي النُّشُورُ،

وَهَوَتْ فِخَاخُكَ فِي مِدادِي
وَهْوَ يَرسمُنِي عَلى رَقْصِ الحروفِ
وَيَرْسُمُ الدُّنْيَا.
نَجَتْ دُنْيَايَ مِنْكَ
وَصارَتِ الأَشْياءُ بَوْحًا مِنْ أَثيرٍ...
كُلُّ شَيْءٍ عَادَنِي،
وَتَجَمَّعَتْ ذاتِي بذاتِي.
وَاسْتَلَلْتُ "أَنايَ" في أَلَقِ القَصيدَةِ.
كُلُّ مَا حَوْلِي نُهوضٌ أَوْ عُبورُ
وَأَنا التَّوَسُّطُ
بَيْنَ هَذا الكَوْنِ والأَبَدِيَّةِ البَيْضَاءِ،
بَيْنَ الخُلْدِ وَالعَدَمِ الصَّفِيقِ –
أَنا الحُضُورُ
تَتَراقَصُ الكَلِمَاتُ في أَبَدِيَّتِي
وَيَقُودُنِي الشِّعْرُ الكَبيرُ

وَأَظَلُّ فيهِ قصيدةً تَختالُ في دَمِها —
أَنَا أَلَقُ الحضورِ،
أَنا النُّشورُ...
أَنَا النُّشورُ...

أَلْحَاضِرُ المسْكُونُ بالزَّمَنِ الهَجينِ يَشُدُّنِي
وَتَشُدُّنِي فِيهِ خُرَافَاتٌ
يُقَالُ لَهَا اليَقِينُ.
لا شَيْءَ فِيهِ سِوايَ،
لَكِنّي أُوَزِّعُهُ
عَلى أَشْلائِيَ المتَناثِرَاتِ وَأَرْتَديني
كُلَّمَا قَامَ اليَقِينُ عَلَى دَلِيلٍ
أَوْ تَثَاقَلَتِ الحَقِيقَةُ في مَدايَ:
أَنَا الحَقيقَةُ في الوجُودِ،
أَنَا الأَمينُ.
لا شَيْءَ يَثْبُتُ غَيرُ ذاتِي،

فانْتَحِرْ، يَا وَقْتُ،
وَٱنْكَأْ جُرْحَكَ المفْتُوحَ
في أَعْماقِ خَاصِرَتِي...
أَنَا وَحْدِي الحَقِيقَةُ فِي الوُجُودِ،
أَنَا الحَوَاشِي والمتُونُ،
وَأَنا هُيَامُ القَلْبِ
حِينَ يَفيضُ فِيهِ الوَجْدُ
أَوْ أَلَقُ العُقُولِ
إِذا تَأَلَّقَ فِي تَفَتُّحِهَا يَقِينُ...
لا شَيْءَ يُفْلِتُ مِنْ مَدَايَ سِوايَ...
لا تَغْيِيرَ يَحْمِلُنِي
وَلا تَنْقِيبَ فِي بَحْرِ المعارِفِ
واكْتِشافَاتٌ تُحَرِّكُ وُجْهَةَ الأَكْوَانِ...
لا تَغْيِيرَ...
وَحْدِي ثابِتٌ فِي عَالَمِ المتَغَيِّرَاتِ

وَوَحْدِيَ المتَغَيِّرُ الأَبَدِيُّ
وَالصَّوْتُ المدَوِّي
وَالرَّنينُ...
وَحْدِي أَنَا فِي الكَوْنِ
أَكْسِرُ مِنْ ذَوَاتِي حِبْرَهَا وَخُمُورَها
وَأَصُبُّهَا فِي الحُلْمِ
حَتّى تَسْتَحِيلَ الحُلْمَ
أَوْ أَذْرُو عَلَيْهَا الأَبْجَدِيَّةَ
ثُمَّ أَجْعَلُها القَصِيدَةَ –
يَا قَصيدَةُ،
هَدْهِدِيني...
وَٱحْمِليني عَالِيًا فِي سَمْتِكِ المفْتُوحِ
وَٱشْتَعِلِي بأَشْوَاقِي
كَأَنِّي جَمْرَةٌ مِنْ بُرْتُقَالِ الشِّعْرِ
تَخْتَصِرُ المدَى،

وَكَأَنَّنِي فيكِ السَّجينُ.
يا قَصِيدَةُ،
وَلْيَكُنْ صَوْتٌ بصَوْتٍ:
كُلَّمَا هَدَأَ الصَّهِيلُ هَبَبْتُ فِيَّ
وَشَرَّدَتْنِي لَهْفَتِي،
وَمَتَى هَدَأْتُ هَدَأْتُ مِنْ عَجَبٍ —
"أَنَايَ" تَصَدَّعَتْ فِي وَجْدِهَا
وَتَصَدَّعَتْ فِي أَرْضِهَا
كَالشِّقِّ مِنْ عُنْفِ الزَّلازِلِ.
زَلْزَلَتْنِي رُؤْيَتِي
وَتَجَمْهَرَتْ حَوْلِي المنُونُ.
يَا شِعْرُ،
سَلِّطْ جَمْرَكَ العَارِي عَلَيَّ
وَكُنْ ثَقافَتِيَ التِي تَتَواجَهُ الأَزْمانُ فِيهَا
وَلْيَكُنْ أَبَدٌ حَنُونُ

مِنْ حُلْمِكَ المزْدَانِ باللاوَقْتِ،
وَلْيَكُنِ الجُنُونُ
أَعْلَى مِنَ الموْتِ الهَجينِ —
أَنَأ الذي تَرَكَ الوُجودَ عَلى فرَاغِ خَوَائِهِ
وَاقْتادَهُ حَرْفٌ حَنُونُ،
وَأَنَا القَضِيَّةُ فِي خَفَايَا أَبْجَدِيَّتِيَ الكَبيرَةِ
سَلَّطَتْ سَيْفَ القَصيدَةِ
فَوْقَ أَطْرَافِ المدَى نارًا،
أَنا الشِّعْرُ العَظِيمُ،
أَنا اليَقِينُ...
أَنَا اليَقينُ...

يَأْتِي إِلَيَّ الموْتُ
ثُمَّ يَعودُ مُنْهَزِمًا.
تُحَفِّرُ وَجْهِيَ الأَيّامُ.
يَضرِبُنِي بسُنْبُكِهِ الزَمَانُ،
يَرُدُّنِي فِلَذًا عَلَى فِلَذِي،
وَتَعْصِرُنِي الثَّوَانِي.
يَهْوِي عَلَيَّ العُمْرُ مِنْ ثِقَلٍ...
وَذاتِي تَسْتَوِي فِي عُمْقِ أَعْمَاقِي:
تُطَرِّزُهَا تَجارِبُها،
وَتَلأَمُهَا نَوائِبُهَا،
وَتَحْمِلُهَا الأَمَانِي

وَتَرُدُّهَا ذَاتًا بعُمْقِ الكَوْنِ.
عُدْ، يَا مَوْتُ، وَحْدَكَ خائِبًا،
سَتَظَلُّ وَحْدَكَ خَالِقًا
لا نَسْلَ مِنْهُ، ولا وَرِيثَ...
وَشُدَّ عَرْشَكَ بالزَمَانِ وبالمكانِ
وَتَخَيَّرِ الموْتى،
وَلُمَّ بصَوْلجَانِكَ هَيبةً عَبْرَ المدى،
وَاسْتَنْزِلِ الخَوْفَ الصَفيقَ
فلَمْ تَلِدْ ولَدًا يَقولُ: أُحِبُّ!
لَمْ تَسْكُنْ بقلْبٍ عاشِقٍ يَشْتَاقُ صَوْتَكَ.
وَحْدَكَ المنْفِيُّ فِي المنْفَى
وَوَحْدَكَ سَاكِنُ الأَبَدِيَّةِ القَفْرَاءِ،
وَحْدَكَ فارِغٌ فِي قَلْبِكَ الذَّاوِي المهَانِ.
سَتَظَلُّ تَعْدُو فَارِغًا فِي عُقْمِكَ الأَبَدِيِّ
تَنظُرُ عَرْشَكَ الخَاوِي

وَبابُكَ مُغْلَقٌ فِي قِمَّةِ الدُنْيَا.
وَحيدٌ فِي سَرِيرِكَ، حِينَ تَرْقُدُ،
لا شَرِيكَ،
وَحينَ تَنهَضُ لا شَرِيكَ،
وَتَرْتَمِي فِيكَ الملالَةُ
مِثلَ عُشِّ العَنكَبوتِ...
هُناكَ، يَا مَوْتُ، ٱعْتَصِمْ
وَتَرَبَّصِ الأَحْيَاءَ
وَٱزْرَعْ بالمدَى الأَشْرَاكَ
وٱنْتَظِرِ الفَرِيسَةَ فِي الزَمَانِ...
أَطْلِقْ سِهَامَكَ
مِثْلَ قَنّاصٍ خَبيرٍ بالطَّرائِدِ
وَٱنْتَظِرْنِي فِي ثَنَايَا الوَقْتِ
وَٱرْفَعْ صَوْلَجَانَ الهَوْلِ
فِي مَلَكُوتِكَ الخَاوِي

وَهُبَّ عَلَى حُدُودِ الزَائِلِينَ
لكَي تَرَانِي...
أَنَا هَهُنا
مُتَوَحِّدٌ فِي الحَرْفِ،
أَخْضَرُ مِثْلَ سُنْبُلَةٍ،
أَخُطُّ زَمَانِيَ المفْتُوحَ للآتِينَ
عَبْرَ قَصِيدَةٍ
وَأَظَلُّ أَعْلَى مِنْ زَمَانِي،
أَيُّهَا الموْتُ العَقِيمُ،
أَظَلُّ فِي مَلَكُوتِكَ المُمْتَدِّ حُلْمًا مُسْتَحِيلًا
لا تُطَاوِلُهُ شِراكُكَ،
ثُمَّ أُولَدُ كُلَّ يومٍ فِي الحُرُوفِ وفِي القَصائِدِ.
كُلَّمَا دَقَّتْ يَدَاكَ عَلى فُؤادِي
لمْ تَجِدْنِي.
كُلَّمَا رَكَضَتْ كِلابُكَ خَلْفَ خُطْوِي

لَمْ تَجِدْنِي.
كُلَّمَا امْتَدَّتْ يَدَاكَ إِلَيَّ
ردَّتْهَا القَصائِدُ
وانْكَسَرْتَ عَلَى كِيَانِي.

لا شَيْءَ فِيَّ سِوَايَ.
لا مُتَصَدِّعًا، يَا مَوْتُ، فِيَّ سِواكَ.
تَأْتِي ثُمَّ تُهْزَمُ خَائِبًا.
لا شَيْءَ يَثبُتُ غَيْرُ ذاتِي فِي المدَى،
و"أَنَايَ" يَجْمَعُهَا صَهِيلُ الشِّعْرِ.
يا شِعْرُ، ٱحْتَشِدْ فِي أَرْضِيَ العَطْشَى
وَفَجِّرْ مَاءَهَا وَزُرُوعَهَا
وَٱفْتَضَّ بِكْرَ حُرُوفِها،
وَكُنِ اللَظَى والزَمْهَريرَ،
كُنِ التَّوَحُّدَ فِي ٱنقِسامِ الزائِلينَ،
وكُنْ سِرَاجَ العَارِفِينَ،

يُسَوِّرِ الدُنْيَا اليَقِينُ.
يَا شِعْرُ،
سَلِّطْ جَمْرَكَ العَارِي عَلَيَّ
فَيَسْتَقِيمَ الخُلْدُ فِي ذَاتِي
وَيَهْوِي الموْتُ عَنْ روحِي،
وتَنْهَزِمُ السُّنُونُ،
وَكُنِ المرامِي،
كُنْ ثَقافَتِيَ التِي تَتَوَاجَهُ الأَزْمَانُ فِيهَا،
وَلْيَكُنْ أَبَدٌ حَنُونُ
مِنْ حُلْمِكَ المزْدَانِ باللاوَقْتِ،
وَلْيَكُنِ الجُنُونُ
أَقْوَى مِنَ الموْتِ الهَجِينِ –
أَنَا الذي عَقَدَ الوجُودَ عَلَى حُروفِ الوَحْيِ
تَاريخًا بلا زَمَنٍ،
أَنَا الدَهْرُ الحَصِينُ

وَأَنَا القَضِيّةُ فِي خَفَايَا أَبْجَدِيّتِيَ الكَبيرةِ
سَلَّطَتْ سَيْفَ القَصيدَةِ
فَوْقَ أَطْرَافِ المدَى نَارًا،
أَنَا الشِّعْرُ العَظِيمُ،
أَنَا اليَقينُ...
أَنَا اليقِينُ...

(١٨ — ٢٠ — آذار — ٢٠٠٨)

ديزيره سقال

المعلقة الثانية

(أو كتاب الذاتين)



إلى ديزيره

الذات التي تكتشف ذاتها

نَقرأُ الشاعرَ، فَنَجِدُهُ يَنقسِمُ اثنين، ويَصيرُ ذاتَين في ذهولٍ: ذاتٍ تتأمَّلُ الأخرى، وتُحاولُ قراءَتَها، فَتَتَكاثَرُ التساؤلاتُ في نفسه. فَمِنْ أَيْنَ انبثَقَتْ هَذِهِ الذاتُ الأخرى، وَهيَ ذاتٌ لا تُشْبهُ إلاّ ذاتَ الشاعرِ، تَوْأَمٌ لها، نابعةٌ مِنْها، تُحَاكيهِ ويُحاكِيها مِنْ داخِلِه، لِتُعَبِّرَ عَنْهُ. إنَّها

صُورَتُهُ المطابِقَة. لذلكَ نَرى الشاعرَ في حالٍ مِنَ الذُّهولِ وَالقَلَقِ، يُحاولُ الإجابَةَ عن أسئلةٍ كَثيرةٍ تَعْتَرِيهِ، يُحَاوِرُ ذَاتَهُ الأُخرى، وَيُسَائِلُها عَنْ وُجُودِها، وَكِيَانِها، وَمَصْدَرِها...

هَذِهِ الذاتُ كانَتْ مِنْهُ وَلَهُ، فَانْسَلَخَتْ عَنهُ، ثُمَّ عادَتْ لِتَلْتَحِمَ بهِ. تُرى، هَلْ كانَ يُفتّشُ عَنْهَا، أَوْ أَنّها، إنْ وُجِدَتْ، فَلِغايةٍ ما؟ لَدَى الشاعِرِ شعورٌ بالانقِسامِ، مِنْ جِهَةٍ، وبالالْتِحامِ بالذات الأُخرى، مِنْ جِهَةٍ ثانِيَة.

في هذا الإطارِ، يُطْرَحُ الكثيرُ مِنَ الفَرضِيّاتِ: هَلْ إنّ الشعورَ بذاتٍ أُخْرَى تَسْكُنُنا، وَتُحاكِينا، وَتُعايشُنا، هُوَ، وَحْدَه، النقطةَ الأساسَ؟ هل إنّ الشعورَ بذاتِنا التَوْأَمِ المنسَلِخَةِ عَنّا هُوَ الأَهَمُّ؟ لا بُدَّ مِنَ القَوْلِ إنَّ الشاعرَ يُعاني

حالةً مِنَ التَنقيبِ عَنِ الذاتِ الأُخرى التي صَادَفَهَا، بَلْ قَابَلَها طَوْعًا، وَمُنْذُ ذَلكَ هُوَ يُحَاوِلُ العيشَ مَعَهَا.

أَهِيَ حالَةٌ مِنَ العُصَابِ؟ نَقُولُ: لا، لأَنَّها، وَإِنْ كَانَتْ تَحْمِلُ فِي طَيّاتِها بَعْضَ مَلامِحِ النَّرْجَسِيَّةِ والآنَوِيَّةِ، لا تُجسِّدُ، بحدّ ذاتِها، نوعًا محدّدًا مِنَ العُصاب.

هَلْ فيها حالةٌ تُشْبهُ الذِّهَانَ، حَيْثُ نجدُ الانقساماتِ وَالتَّشَعُّباتِ والغرابةَ والتَّبَاعُدَ عَنِ الذاتِ؟ حالةٌ تحملُ ما تحملُ من هَذَيانِ الكِبارِ، وَالعَيشِ فِي القَصيدةِ، والاحْتِماءِ بها، وَعَدَمِ الاكتراثِ بزمانٍ أو بمكانٍ؟ إذا عالجنا هَذِهِ "الملحَمَةَ" الذاتيَّةَ مِنْ وِجْهَةِ نَظَرٍ مَحْضٍ عِلْمِيّة وجَدْنَا شَاعِرَها يَمرُّ بحالةٍ مِن "انقسامِ الذاتِ"، هِيَ، بالتَحديدِ، حالةٌ نَفْسِيّةٌ؛ وَلَكِنَّ التَّشخيصَ يكونُ مَبْتُورًا إِنْ تَوَقَّفَ

عِنْدَ هذا الحَدِّ، لأنَّ الشاعِرَ حَلَّقَ بنا نَحْوَ البَعيدِ، باكتِشافِهِ شخصًا آخرَ يَنْبُعُ مِنْهُ في الأساسِ، وَلا يَتأثَّرُ بالخارجِ، كَمَا في هَلْوَسَةِ الذِّهانيّ، ثُمَّ يُحاكيهِ، وَيَطْبَعُهُ، وَيُرافِقُهُ، ويُلهِمُهُ؛ والأهَمُّ أنَّهُ يعودُ لِيَلْتَحِمَ مَعَهُ، وهذا مَا يَحْمِلُ المعانيَ كُلَّهَا؛ فَلَوْ كانَ غَريبًا عَنْهُ أساسًا، يُمْلِي عَلَيْهِ أَشياءَ لا يُريدُها، وَيَسْلبهُ إرادتَهُ، لَكانَ أمرًا سَلبيًّا في هَذا السِياقِ. وَلَوْ كَانَ لا يُحاكِيهِ وَيحاوِرُهُ، بَلْ يَتَصَرَّفُ به كما شَاءَ، وَيَقودُهُ إلى حَيثُ لا يُريدُ هُوَ، لافْتَرضْنَا أنَّ هذا انفِصامٌ في الشَّخْصِيَّةِ. والشيءُ المَمَيَّزُ أنَّ هاتَيْنِ الذاتَيْنِ قَدْ عادَتَا والْتَحَمَتا في داخِلِه، وَاعتَرَاهُمَا الذهولُ لِرؤيَةِ بَعْضِهِمَا تَرَافَقَتَا في بَيَاضِ طَرِيقٍ، ثُمَّ تَعانَقَتَا لِتَتَكامَلا.

ولا يُمْكِنُ أنْ يُعانيَ هذِهِ المعاني وَالتَشابيهَ والأحَاسيسَ إلاّ فَنّانٌ مُرْهَفٌ كالشاعِرِ؛ فَالدخولُ الى مَتاهاتِ النَّفْسِ، وَاكتشافُ كُنْهِها، كَمَا فَعَلَ هذا الشاعرُ، أَمْرٌ يَسْتَلْزِمُ شَجاعَةً، وَإحساسًا، وَعقلانيّةً، وحضورًا للتَفتُّحِ في دروبِ الحَياةِ وَاكتشافِهَا.

والسُؤالُ المطروحُ هُنا : هَلْ أضاعَ كلٌّ مِنّا جِزْءًا مِنْهُ في هذا العالمِ، أَوْ ذاتًا أُخرى يُفتّشُ عَنْهَا، وَلَكنَّهُ لا يَجْرُؤُ على البَوْحِ بذلكَ؟ وإذا ما التقى بها، فَهَل يَجْرُؤُ أنْ يُظهِرَ لَهْفَتَهُ لها، وَيَغوصَ عَلَى أعماقِها، كَمَا فَعَلَ شاعرُنا؟! لا أَظُنُّ؛ لأنَّ أغلَبَ الناسِ تُعُدُّ ذلكَ حالةَ جُنون، وَلَكِنَّ الفَرْقَ بَيْنَ العاقِلِ والمجنونِ شَعْرَةٌ تَتَجَلّى في حُسْنِ استعمالِ جُنُونِنَا لِنَكْبُرَ؛ فَفي هَذِهِ الحالِ أَغْنَى الانقسامُ بَيْنَ الذاتين

شِعْرَ ديزيره سقال، وَأَعطاهُ مَدًى ومعنًى جَديدَيْن، وَهُوَ أمرٌ مَطلوبٌ مِنَ الكُلّ: فَعَلَيْنَا أَلّا نَخافَ مِنَ الغَوْصِ عَلَى أَعْماقِ ذَوَاتِنا لاكتشافِهَا، وَتَقَبُّلِ انقسامَاتِها، وَبالتالي ثَرْوَاتِها، مَعَ العِلْمِ بأَنَّهَا تَبْقى ذَاتًا واحدةً، مُلْتَحِمَةً، مُتَجانسةً، تُغْنِيها وَنُغْنيها، وهَذَا ما يَجعلُ منّا أشخاصًا مُتَفَرِّدينَ في الوُجود.

لَقَدْ حَقَّقَ ديزيره سَقّال، في القَصيدةِ، حُلْمَ كُلِّ إنسانٍ بإكتِشافِ الذاتِ الأخرى المنبَثِقَةِ مِنْهُ، وَالمشابِهَةِ لهُ.

فَنَحْنُ، عُلَمَاءَ النّفْسِ، حِينَ نَغوصُ على النفسِ البَشَرِيَّة، نَكْتَشِفُ فيها وُجوهًا لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، وهذا ما يَجْعَلُ الشخصَ على ما هُو عَلَيْهِ، يَحْتوي في نَفْسِهِ عِدَّةَ مُيُولٍ مُتَضاربةٍ بَيْنَ الشَّرِّ والخيرِ، والحبِّ والكُرْهِ، وَالفَرَحِ

والاكتئابِ، وَالموتِ وَالحياةِ. فَبَعْدَ أَنْ كانَ الشاعِرُ، في "مَلْحَمَتِهِ" الأُولى يَكْتُبُ عَنِ الموتِ، وَيُوَاجِهُهُ بقصيدةِ ذاتِهِ، نَرَاهُ اليومَ، في مُعَلَّقَتِهِ الثانِيَةِ، يَجِدُ ذَاتَهُ الأُخرى، وَيَلْهَفُ لها، فَتتفجَّرُ فيه عطاءاتٍ وَابتكَاراتٍ جَديدةً.

هكذَا نَقْرَأُ شَخْصَ ديزيره سَقّال: الشخصَ الماهرَ في **فَنِّ التَحْويلِ**؛ فَهُوَ الفَنّانُ المبدِعُ الذي يَعْرِفُ كَيْفَ يُحَوِّلُ الأشياءَ وَالأحاسيسَ، بَلْ حَياتَه كلَّها إلى إِبداعٍ، وإبداعٍ، وإبداعٍ... وَيُجَسِّدُهُ في قصيدةٍ تُخَلِّدُهُ، لِتَصيرَ ذَاتَهُ وَحْدَهَا هِيَ الأَبْجَدِيَّة...

د. ديزيره قزي

- ١ -

أَمشي إِلى ذَاتي التي ٱشْعَبَتْ

لأَقْرَأَني،

وأَدْخلُ في مَتاهَاتي

كَأَنَّ علامَةَ الطُّرُقَاتِ غَابَتْ

وَٱفتَحْتُ علَى القَرارِ،

لكِنَّني مُتَمَسِّكٌ بالوَحْيِ

يَعصِمُني،

وَيَبرُق كالشَرارِ،

ويُسَدِّدُ الخَطَواتِ نحوَ قَرارتي

لأَرى إِليها ما تَقَسَّمَ فيَّ
من ذاتٍ وَذاتٍ:
كُنتُ ذاتَينِ استَقَرّا
في كيانٍ واحدٍ،
أَوْ
نُطفَةً لَجَّتْ بها الأَيّامُ
فانشعَبَتْ
وصارَتْ نُطفَتَينِ
وتَوأَمَينِ... بلا قرارٍ...
وتَفَرَّعَتْ بِهِما الطَريقُ
فضاعَ كلٌّ منهُما في آخَرٍ،
لكنّما ٱنسَلَخا معًا
وكأَنَّما كانا معًا
متباعِدَينِ على انتظارٍ...

ليسَت خَطيئتَنا...!

ولكنَّ الضَياعَ يُؤَسِّسُ الأحلامَ —

لم نحلَمْ،

ولكنّا ٱلتَقَينا

حينَ ضِعْنا في مَتاهٍ دائريٍّ

وَٱنكَشَفْنا، ذاهِلَيْنِ، على المدارِ:

ذاتٌ على ذاتٍ،

ووِجدانانِ من ذَكَرٍ وَأُنثى

يمشِيانِ...

أَخَفَّ من وِطْءِ السديمِ على السديمِ

كأَنَّما عَرَفا مَعًا

أَنَّ الطريقَ تقاطَعَتْ

في الأبيضِ الممتدِّ

ثَلجًا ناصعًا،

وتلاقتِ الخَطَواتُ

وٱنطَمَسَتْ مَتاهاتُ المدارِ...

- ٢ -

لا شَيءَ يَذهُلُنا.

نَهيمُ مَعًا بِذَاتَيْنا

وَذاتانا ٱمتلاءٌ أبيَضٌ.

أنا ما يكونُ

وما يكونُ

وما يكونُ...

أنا فيكِ صاريَةٌ

يزَيِّنُ رَأْسَها العالي الجُنونُ.

لا شيءَ يَذهُلُنا...

فنحنُ قصيدةٌ

مَسَحَتْ تَقاسيمَ المكانِ

وَغَيَّبَتْ وجهَ الزمانِ

فلا زمانَ

ولا مكانَ

ولا غدٌ أو حاضرٌ

في لحظةِ الأبديَّةِ البيضاءِ هذي –

كلُّ ذاتٍ

أوغَلَتْ في ذاتِها الأُخرى

وَأُقفِلَتِ الجفونُ

لِتَهيمَ في أَلَقِ الغيابِ المستَمرِّ،

فلا تعودُ إلى ٱنكساراتِ الحضورِ

ولا حَواشيهِ،

وتَكتُبُها المتونُ...

لا شيءَ

في هذا المدى المركومِ إلاّنا،

وكلُّ الخارجِ الممتدِّ وَهمٌ، بَعْدُ،
نحنُ الواقعُ الأبَديُّ
في هذا الوجودِ المستحيلِ
وذاتُنا الفردوسُ والملَكوتُ
حينَ تجَمَّعَتْ
ذاتَينِ في ذاتٍ
وَأَرَّخَتِ الحضورَ
فعادَنا في الثلجِ أبيضَ
وَٱغْتَنَيْنا بالغيابِ
لنفتحَ الكلماتِ في شِعرٍ جديدٍ:
لا لِنَشْرَحَ ما يحيطُ بنا،
ولكنْ لاكْتِناهِ السِّرِّ
في أَبَديَّةٍ بيضاءَ تَحضُرُنا
ونَرحلُ في مداها
خاطرًا أغنى من الأحلامِ...

كُنّا كوكبَينِ تَوازَنا في كَوكَبٍ
وَمَرَّ روحَينِ ٱستقَرّا في القصيدةِ
حينَ خطَّتْها السُّنونُ...
وَلْيَكُنْ أَنّا، إذا شِئْنا،
كَتَبْنا الكونَ حرفًا واحدًا
وارتاحَ في دمِنا مدى التكوينِ
واختَطَّتْ مَشيئتُنا المكانَ
يُحيطُهُ زمَنٌ حَنونُ —
سيكونُ مِنّا ما يكونُ...

- ٣ -

بَيضاءُ هذي الأرضُ
في أعماقِ ذاتَيْنا،
ولا شيءٌ سوى أَلَقٍ
يُحيطُ بسَمْتِها.
مِنّا تَناسَلَتِ الخَيالاتُ التي
حَمَلَتْ صفاءَ السِّرِّ...
مِنّا نَحْنُ سافَرَتِ المعَلَّقَةُ الجديدةُ في المدى
وحَفَرْتُ منكِ ٱسمي،
وَرِثْتِ الحُلْمَ منّي...

عندَها ٱنبَثَقَ الوجودُ
وتأَلَّقَتْ دُنْيا على دُنْيا،
وفاضَتْ ذاتُنا
من وَحدةِ الذاتَيْنِ
ألحانًا من الفِردوسِ،
وٱنتشرَ النشيدُ...
صار المكانُ خطيئةً... كالسجْنِ.
صِرْنا وحدَنا في اللامكانِ،
ولا زَمانَ يُحيطُنا —
لا شيءَ فينا غَيرُنا:
ذاتانِ في ذاتٍ
وأَرضٌ أخْصَبَتْ في الشِّعْرِ
فانبثَقَتْ قصيدَتُها
تشِعُّ، وأُفْقُها أبَدٌ بعيدُ...
مَنْ نحنُ؟

كيفَ ٱلتَمَّتِ الذاتانِ في ذاتٍ
وجاءتْ
من مُخَيَّلَةِ الغرابةِ قصَّةٌ
فَتَحَتْ قصيدَتَنا على السِّرِّ الغريبِ
وصارَ كلَّ حُروفِها الألَقُ الجديدُ؟
ذاتي وذاتُكِ توأَمانِ،
وخارجَ الذاتَينِ نَفْيٌ:
لا كِتابةَ فيهِ
أو شِعْرٌ،
ولا أبَدٌ خُرافيٌّ
يشقُّ زمانَنا المعجونَ بالصَلصالِ،
لا آتٍ،
ولا ماضٍ
ولا زمَنٌ مَديدُ —
كلُّ المدى مُتَجَمِّعٌ

في تَينِكَ الذاتَينِ،
كلُّ حضورِ هذا الكونِ،
كلُّ الكونِ والتَكوينِ...
والخَلْقُ الإلَهيُّ الأبيدُ
متَكَوِّمٌ في وحدةٍ
فوقَ الحضورِ
وخَلْفَ أبعادِ المعاني.
ليسَ فينا
غيرُ وَحْيٍ نازلٍ من فوْقُ
ينثرُهُ على الدُّنيا القَصيدُ.

- ٤ -

مَنْذا أَكونُ، إذًا،
على غَبَشِ الزمانِ
وفي المدى
يا ذاتيَ الأُخرى؟
وكيفَ يَسنُّ، بَعْدُ، نِظامَهُ
هذا النِّظامُ؟
يَنحلُّ فيَّ ضَميرُكِ الآتي من المجهولِ.
تنكَسرُ المسافةُ والغيابُ،
يذوبُ فيكِ الحاضرُ الممتدُّ

والكونُ المجمَّعُ

والأنامُ...

وأنا وأنتِ على امتدادِ اللاأزَمانِ

عبارةٌ

ضَمَّتْ بصَمْتٍ واحدٍ

كلَّ الوجودِ...

أنا وأنتِ

قصيدةٌ زَهريَّةٌ

في مهرجانِ الغِبْطةِ البيضاءِ

تختصرُ الزَّمانَ،

وبَعدَها... لا شيءَ

غيرُ النارِ تخرجُ من قرارتِها

وتنسجُ من كِيانِ العُمْرِ

أعمارًا لنا...

هُوَذا الظلامُ

نورٌ على نورٍ
وخَلْقٌ مستحيلٌ عَمَّدَ الدنيا –
ودُنيانا شعورٌ وٱنتِظامُ
في قِمّةِ الفوضى،
ومُنعَرَجاتُ ذاتَينا تَواريخٌ
تُلَخِّصُ قصَّةَ الأزْمانِ.
لا زَمَنٌ سِوانا.
ليسَ في الدنيا سِوانا
والتواريخُ التي عَبَرَتْ
هيَ الشَّرَرُ الذي فاضَتْ بهِ الذاتانِ
قَبلَ تَوَحُّدِ الأشياءِ.
لا شيءٌ سِوانا
في حصارِ المستحيلِ
وفي الزمانِ
يحدُّهُ موتٌ زُؤامُ.

لا شيءَ يَفْصِلُنا
وفي وِجدانِنا المفتوحِ للأنوارِ
يزهو الحاضرُ الممتدُّ،
والشِّعْرُ المحَرَّرُ،
والكلامُ...

– ٥ –

يا ذاتيَ الأُخرى،
تُلَوِّنُنا الحروفُ
ويسقطُ النسيانُ في صوتِ القصيدةِ.
كُلَّما رَدَّدْتُ وَحْيًا
أو خطَطْتُ مشاعري في الحَرْفِ
كُنتِ أمامَ قلبي —
كيفَ جئتِ إِلَيَّ
من أعماقيَ الحُبْلى
وكُنتِ بعيدةً كالطَّيْفِ

في تَيْهِ المكانِ؟
كيفَ ٱرتَقَيْتُ إلَيكِ
حينَ تلاشَتِ الأشياءُ من حَولي
وهاجَرَني زَماني؟
أخْصَبْتُ حَقْلَكِ بالقصيدةِ
وٱلتَفَتْتُ إلَيَّ فيكِ
فَكُنْتُني،
ورأَيْتُ فيكِ قرارَتي،
وَرَأَيْتُني
في قلبِكِ المعجونِ بالأَلَقِ الشَّفيفِ
أُحاصرُ الدُنيا بأحلامي
وَأَرْحَلُ في الأَماني...
وَرَأَيْتُ لا دُنيا سِواكِ
ولا وجودَ...
ولا مكانَ...

رَأَيْتُني
في يَقْظَةِ السَّمْتِ الأَثيرِيِّ المدَثَّرِ بالبَياضِ
أُحَرِّرُ الأفلاكَ فيكِ
وَأَستَفيقُ...
كأنّني ما غِبْتُ عنكِ
ولا شَرَدْتُ بسِحْرِ عَينَيكِ.
ٱنْتَظَرْتُ ولادَتي،
وَوِلادَتي كانتْ ولادَتَكِ العظيمةَ.
كُنتُ فيكِ ضَميرَكِ الثاني
وكُنتِ ضَميريَ الآتي منَ الهَذَيانِ.
كُنتِ الدَّرْبَ تُغْدِقني إليكِ
لأُعلِنَ العِصيانَ فيَّ
وَأَدْفُقَ الأحلامَ في الدُنيا
وَأَجْهَلَ ما عَرَاني.
حِلْمَيْنِ كُنّا في ضَميرِ الغيبِ،

شِعْرًا في مساحاتِ الأمانِ...

لا شَيءَ فيكِ سِوايَ:

لا أَحَدٌ

ولا زَمَنٌ

ولا نَبْضٌ بغَيرِ دَمي

وَأَنْتِ دَمي ونَبْضي

وَٱئْتِلاقاتُ القصيدةِ وَهْيَ تقتحِمُ الأَثيرَ...

تَأَلَّقي...

فالكَوْنُ غابَ

وغابَتِ الدُنيا —

أنا الدُنيا.

أنا الآتي منَ الهَذَيانِ

أحملُ رايَتي في قلبكِ الخَفّاقِ

مؤْتَلِقًا يُخَلِّدُ وَجهَكِ الوَرْدِيَّ

فوقَ مدى الزمانِ.

- ٦ -

وَجهٌ على وَجْهي،

ونَبْضٌ فوقَ نَبْضي،

والكِيانانِ ٱنبثاقٌ واحدٌ.

لا شَيءَ في هذا الصَفاءِ المستحيلِ

سِوَى مدَى أبَديّةٍ بَيْضاءَ...

لا مُتَألِّقًا في غَورِ أغواري سِواكِ،

وأنتِ، يا ذاتي، وُجُودي

وأنا خُلودٌ في ضَميرِ الشِّعْرِ

أَنْشُرُ وَحْيَهُ عَبْرَ الحدودِ.

لا شَيْءَ يَسْتُرُني سِواكِ
وما يَقيني دَمْغَةَ الزمنِ الثقيلِ
سِوَى السَّنا
بصفائِكِ الأبَدِيِّ،
يا ذاتي التي عادَتْ من التَيَهَانِ
وَٱلتَمَّتْ بقلبي
فاعتَصَمْتُ بدِفْقِها...
وتَحَرَّرَتْ ذاتي من السِّجْنِ الطَّويلِ
وأطْلَقَتْني من قُيودي.
لا شَيْءَ يَسْتُرُني سِواكِ
وكُلُّ ما في الكونِ يَصْدُرُ مِنْ مَدًى
يَمْتَدُّ فِيَّ إلَيَّ...
لَكِنْ حِينَ أَوْغَلْتِ ٱنشَطَرْتُ
وصِرْتُ من وَجْهَينِ:
وجْهٍ أَبيضٍ كالثلْجِ

لوَّنَهُ نشيدي

وٱخْتَصَرْتُ بهِ الحضورَ،

وَوَجهيَ الثاني عَبيرٌ

جاءَ من ألَقِ الضَّياعِ

فغَلَّ فيَّ،

وصارَ مُعْتَصَمي الذي حَرَّرْتُ فيهِ قَصيدَتي

وقَصيدَتي ٱنبثَقَتْ

مِنَ الوجَعِ الذي ذَوَبْتُ فيهِ غِبطَتي.

******

كُلّي عَلَيْكِ مُجَمَّعٌ،

يا ذاتيَ الأُخرى،

وكُلّي أَبيضٌ كالثلْجِ

حينَ تلاقَتِ الذاتانِ فيهِ...

أنا المكانُ،

أنا الزمانُ،

أنا اهتِزازاتُ الوجودِ،

أنا حُدودي،

وأنا الخلودُ

متى خرَجْتُ إلى القصيدَةِ مِنْ دِمايَ،

أنا خلودي...

- ٧ -

عَيناكِ في عَيْنَيَّ
والزَّمَنُ المكَسَّرُ حَوْلَنا
أَلَقٌ...
وفي دَمِكِ الذي يُغوي عَذاباتي دَمي...
فلِمَنْ أَبوحُ بصَمتيَ المرتاحِ فيَّ؟
كأنَّني أَهوى دروبَ المستحيلِ
وكأنّني في مِعْبَرِ العُمْرِ الثَّقيلِ
أشتاقُ ذاتي
حينَ تُغويني بكائنِكِ اللَّجوجِ،

وأَستَقِرُّ عليكِ مُنْصَدِعًا،
أَطيرُ إِلى أَثيرِ فؤادِكِ المفتوحِ لي
وفؤادُكِ المفتوحُ
أَغْنى من سَنَا الفِردوسِ
وَهْوَ يَغُلُّ في العُمْرِ الجَميلِ...
أَلَقُ...
وفي دَمِكِ الذي يُغوي عذاباتي دمي...
ودَمي لُهاثُ الشَّوْقِ في وِجْدانِكِ العاري،
دمي في ليلِ عينيكِ ٱرتعاشاتُ المدى،
ودمي تَراتيلُ الملائِكِ وَهْيَ تَصْدَحُ
عَبْرَ روحِكِ، يا مَثيلي...
أَلَقٌ
يمرُّ بذاتيَ البيضاءِ،
يَقسِمُني
فأخرجُ من صفاءِٱلازَوَرْدِيًّا...

وَليسَ سِوايَ
في فردوسِكِ النائي عن النُقْصانِ.
ليسَ سوايَ فيكِ متى خَلَوْتِ
وطارَ بي أَلَقُ القصيدةِ.
ليسَ يكتُبُني سِواكِ
ويقرأُ الفوضى
وينظِمُها حروفًا
أو يخطُّ بأحرف الألَقِ الجميلِ
فردوسَ أعماقي.
هناكَ أراكِ
أصفى من بريقِ الكوثرِ الوَهّاجِ،
أَنظِمُ فيكِ وَحْيَ الشِّعْرِ
من نارٍ
ومِن زَهْوٍ أَثيريٍّ...
أراكِ هناكَ، يا ذاتي،

على عُمْقِ الحبورِ المستطيلِ
تتكوَّمُ الدينا على عينيكِ،
يَختصرُ الوجودَ جميعَهُ حَرْفٌ
تَضَوَّعَ من فؤادِكِ عابِقًا،
يا ذاتيَ الأخرى،
ويَغتسِلُ ٱشتِعالُ الخَلْقِ
في أعماقِ عينيكِ.
ٱنتَظَرْتُكِ قَبْلَ خَلْقي
وٱنتظَرْتُ حضوريَ المذهولِ فيكِ،
وَكُنْتِ، إذْ كُنّا، مَثيلي!
ثُمَّ ٱكتَشَف حضورَكِ الوَهّاجِ فيَّ
فعَادَني نَسَمُ الطفولَةِ
وٱسْتَقَلَّتْ ذاتيَ الأخرى
عن الزمنِ الهزيلِ.
كُنّا معًا حُلْمَيْنِ

يَمسَحُ قَلبُنا الدنيَا
فنغرَقُ فوقَ هذا الكونِ
في اللاكَوْنِ
حيثُ تَغيبُ كلُّ مرارةٍ،
ونَغيبُ في ثَلْجٍ يَفِرُّ منَ الذُّهولِ.
كُنّا معًا حلمَينِ
أَبْعَدَ من حضورِ الخَلْقِ
أوْ
أَلَقًا يَطيرُ على مساحاتِ الخَيالِ.

- ٨ -

مُتَمَدِّدًا في حُلْميَ المذهولِ
تَحْضُرُني حَياتي:
كُنْتُ طفلًا ماردًا
شَطَرَ الزمانَ بحلْمِهِ
وتَبارَكَتْ عَيناهُ من عَينَيكِ
يا ذاتي،
فهَل يَتَصارَعُ الطَرَفان فيَّ:
ٱلآنَ والماضي،
ٱلحضورُ وما يَغيبُ؟
هل يَستَفيقُ مدايَ عَبرَ مدايَ؟

هل تتقاطَعُ الطرُقاتُ عَبْرَ دمي
ويسألُني القرارُ
وأنْتِ في دميَ المُجيبُ،
يا ذاتيَ الأُخرى...؟
كأَنّي في الطفولةِ كُنْتُ مُنْتَظِرًا
مُعَادَلَتي التي حَقَّقْتُها
حينَ ٱنعَجَنْتُ أنا بذاتِكِ
وٱنفصَلْتِ عنِ البعادِ إليَّ؟
صِرْتُ مراهقًا
شَجَّ الوجودَ بحلْمِهِ الوَهّاجِ
وَهْوَ يُسابقُ الدنيا إليكِ
ولا رَقيبُ...!
حتّى مراهَقَتي
أَحَسَّتْ بارتعاشِ الغَيْبِ فيها
وَهْوَ يَبحَثُ عنْكِ

في أعماقِ وِجْداني
ووِجْداني بُزوغٌ دائريٌّ
لا يُعطِّلُهُ مَغيبُ...
حتّى مُراهَقَتي رَأَتْكِ
كما الرذاذُ يُلامسُ الأشياءَ.
لم تَعرفْ مَقامَكِ.
لم يَمُرَّ بها سِواها
حينَ حَطَّمْتِ النهايةَ
في خلودِ الحلْمِ.
كُنتُ مراهقًا
لكنّني راقَبْتُ خَلْقَ الْأُمنياتِ
كأنّما عَيْناكِ أُمْنيَتي...
ولمْ أعرفْ سِواكِ بعُمْقِ أحلامي،
ولكنّي بقَيْتُ مُشَرَّدًا عنكِ.
ٱنتَظَرْتُكِ. صِحْتُ...

ساءَلْتُ المكانَ
وليسَ ثَمَّ بهِ مُجيبُ...
لا شَيءَ يحمِلُني إِلَيْكِ.
ظَلَلْتِ خارجَ كائني
عَمياءَ عَنّي
في مكانٍ مقفرٍ،
وظَلَلْتُ أَسمَعُ خَطْوَكِ السِرِّيَّ يسألُني...
ولكنْ... لا أُجيبُ.
فَتَّشْتُ عَنْكِ سُدًى
وكُنْتِ بداخلي.
فَتَّشْتُ بينَ حرارةِ النِّيرانِ فيَّ،
وبينَ أحلامِ الزمانِ...
ولم أجدْكِ...
وظلَّ قلبي ضائعًا عنكِ.
ٱنتظَرْتُ...

وَرُحْتُ أمشي في شَبابِ العُمْرِ
مُكْتَظًّا بحُلْمي
والحياةُ تدورُ بي –
زَمَنٌ بلا زَمَنٍ،
وَسَيْرٌ في مُراوَحَةٍ...
وأنتِ بَعيدةٌ عنّي.
ولكِنْ كُنتِ فِيَّ قويَّةً... حتّى اليقينِ،
وكُنْتِ جرحًا لا يَطيبُ.
وَعَرَفْتُ فيكِ قَرينَةً
وَقَرينَتي قَبَسٌ منَ الأعلى.
ولمْ أعثُرْ عليكِ...

مضى الزمانُ
وطارَ بي في كَوْنِهِ... حتّى الضَياعِ،

وَخَطَّ جَبهَتِيَ المشيبُ...

ثُمَّ ٱنكَشَفِ لِناظِرَيَّ

عَميقةً كالسِّرِّ

مِنْ لونِ الضياءِ

وَطَعْمَةِ الفرَحِ الذي يُحْيِي

وَشَرَّعَكِ العَبيرُ المستَجيبُ.

- ٩ -

ضاحٍ كَما الأَلَقُ المفَتَّحُ
أرتَدي فيكِ الوجودَ
ولا وجودَ سِوايَ،
لا شَيءٌ سِواكِ على مَدايَ —
أنا المدى...
وأنا الوجودُ
متى ٱخْتَزَنْتُ السِّرَّ
أُولَدُ فيكِ مِنْ طَوَفانِ هذا الشِّعْرِ،
أُولَدُ مِلْءَ عَينَيْكِ ٱنتِظارًا

صارَ مِنْ لَحْمٍ وَعَظْمٍ.
تولَدينَ بكائني
أَقْوى مِنَ التكوينِ في رَحِمِ السَّماءِ
وَيُطِلُّ من عَيْنَيْكِ
لَوْنُ الشِّعْرِ،
يَنبَثِقُ الوجودُ على فَضائي...
أنا جِلْدُكِ المْملوءُ بالرَّعَشاتِ
تَسْكُنُني وأَسْكُنُها،
وَنَصْنَعُ مِنْ رَفِيفِ الوُحْدَةِ الأبَدِيَّةِ الأَشْياءَ
والزَّمَنَ المصَفّى
والمكانَ المستَحيلَ.
نَصيرُ مُنطَلَقًا جديدًا
في العَراءِ.
تَتَساكَنُ الدُنيا بِنا
وَنَرُدُّها أَرْضًا

مِنَ الأَلَقِ الطَويلِ
وَفِتْنَةً كانَتْ عَصِيَّهْ.
هِيَ ذي القَصيدَةُ تَستَسيغُ دَمي مِدادًا
في المدى المفتوحِ فِيَّ
وَأَنْتِ أَنْتِ الأبجَدِيَّهْ.

٢٣/ ٣/ ٢٠١٢

ديزيره سقال

المعلقة الثالثة

(أو كتاب الألق)



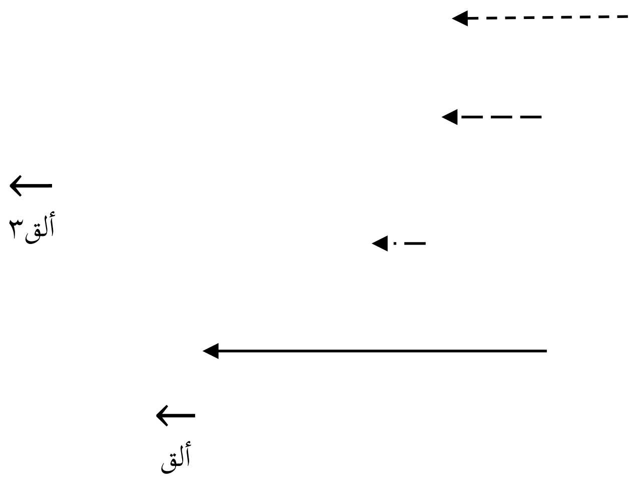
تفكيكيّةُ "المعلَّقة الثالثة" للشاعر ديزيره سقّال وثلاثيّةُ تقلّباتِ الكلمة الثلاثيّة الاختلافيّة

يَعتبر تروبتسكوي (Troubetzkoy) أنّ كلَّ وحدةٍ صوتيّة يجب أن تتضمّن خصائصَ تُميّزُ بينها وبين الوحدات الأخرى، وتجعلُها، بالنتيجة، مختلفةً عنها. يفترضُ الاختلافُ هذا وجودَ تضادٍّ بين الوحدات المميِّزة، إذ ليس بإمكان أيِّ صوتٍ لغويٍّ أن يؤدّي وظيفةً تمايُزيّة (Fonction distinctive)، إلاّ بقدر ما يكون مضادًّا

لصوتٍ آخر. يؤكّد تروبتسكوي على وجود تضادٍّ صوتيّ قادر على التمييز بين كلمتين من حيث المعنى، ما يُسمّى بالوظيفة التمييزيّة من حيث الدّلالة (Sémantiquement différenciative)[١]

لا يمكن فهمُ مفهوم "**الألق**" عند ديزيره سقّال من المستوى المعجميّ المستقلّ - أي القاموس[٢]-، بل من معرفتكَ بشخصيّته، أو.. من السياقِ المعجميّ كسهمٍ ذي مقياسٍ واتّجاه ووِجهة (Vecteur, Module, Direction, Sens)، والسياقِ الداخل-لسانيّ للقصيدة (Contexte intra-linguistique)، حيث الألقُ مجموعُ الاختلافات والتقليبات الصوتيّة التي تجعلُ مدلولَ الكلمة ينطلق من اختلافِ دالِّها عن دالِّ كلمةٍ أخرى، تتمايزُ منها بفارِقِ صوتٍ واحد، ما مفادُه أنّ هذا المجموعَ هو ناتِجُ الاتّجاهات المتخالفة للألق (Résultante) والتي ما

تنفكُّ تصبح في اتّجاهٍ واحد، لأنّها أصلًا متوازيةٌ تسيرُ مُستقيمةَ الخطّ (Colinéaires) لتتّجهَ صوبَ مفهوم المعلَّقة–الألق:



ولمّا أحسستُ أنّ من جِيناتي واحدةً انتقلَت من أستاذي إليَّ، عبْرَ تلاقُحِ طيرِ الإبداع، أحسستُ أنّني مَعنيٌّ بهذا

الألق. أحببتُ أن أكتب لهذا الإنسان الإنسان. أن أكتبَه. قلتُ "عرفتُ مَن أنتَ في هذه المعلّقة. لا تُكملْ! على مَنكبيَّ أطنانٌ من مفاهيمكَ نمَت فيَّ، إنْ قلتَ كلمةً واحدةً بعدُ، سقطتُ من ثِقلِ مَخزنِ أفكاري في قصيدتكَ. عليَّ أن أُفرِغَ مُؤَوِّلاتي قبلَ أن أعرفَ منها المزيد". سلّمَني ما كتَبَ، للتَوّ. بدأتُ بالكتابة قبلَ القراءة! أنا أعلمُ مَن هو ديزيره سقّال. هو ليس في نَصِّه. هو نَصُّه. لذلك، فالقراءةُ المغلَقةُ يمكن أن تبدأَ من خارجِ نَصِّه، منه. فألَقُه، كما عرفتُه، ألقُ الشاعرِ، واللغويِّ، والمثقَّف، والرياضيّ، والأستاذ، والحاضن. ربّما أحدُ هذه الطيور التي نقلَت الجيناتِ اليَّ، كان هذه القصيدة. قرأَها أمامي وهي ما زالت بخطِّ يده، وهو إذْ قرأَها، انتقلَت إليَّ. بدأتُ بدراستي قبلَ أن تُنجَز القصيدةُ الطويلةُ نهائيًّا، لتأكُّدي أنّها "هكذا" ستكون؛ لتأكُّدي أنّ الجينةَ المنتقلةَ تعكسُ الجينةَ الناقلة، حتّى قبلَ أن تَبلغ...

السياق المعجميّ يتمثّل بملاحقة لفظة "**ألق**" كسهمٍ موجَّهٍ–في–ذاته، ويتحدَّدُ مدى مقياسِه (‖←‖ ألق) بمدى ارتباطه العضويّ بما حولَه من ألفاظ. وردَت لفظة "**ألق**" في النصِّ، بدايتِه ووسطِه وآخرِه، ليكونَ الألقُ نواةَ الفكرة–المقياس.

في الموقع الأوّل يأتي الالتئام متكثّفًا في الذاتين (*التأَمْنا*)، في الذات الواحدة–الأنا (*فيَّ*)، وفي الذات الواحدة–الآخَر (*فيكِ*). ويأتي الحرف التخييريّ "*أو*"، بمؤازرة كاف التشبيه، وكلٌّ منهما يُفيد تعادُلًا ما (*أَوْ كَالأَلَقِ الغامِرِ أَطْرافَ المدى مِنْ شَفَتَيْكِ*) ليعرِّفَ معادَلةَ الألق الأوّليّة المضاعَفة التي تنشأ من حالةٍ نفسيّة هي القلق: الالتئام التصاعُديّ = *القلق الغامر أطراف المدى من شفتيكِ* = الكونيّ (*المدى*) + الجسمانيّ (*شفتيك*)، لذلك بنى الشاعرُ

منذ البداية جدليّةَ الخارج/ الداخل، والكونيّ/ الجسمانيّ. وبين تشبيهَي الصورة الواحدة المتركِّزة بالتخيير "*النسم الآتي من الفردوس /أو ك/ = الألق الغامر أطراف المدى من شفتيك*"، نتفهّم المتقاربَين الآتيين: *الألق* ≈ النسيم، *الفردوس* ≈ الشفتان ؛ ومن عنصرَي النسمة والشفة تنكشفُ الوحدةُ المقاسيّةُ للّمس (*الغامر أطراف المدى*) والذوق (*من شفتيكِ*).

ولم يُذكر الألقُ مرّةً، إلاّ في سياق مقياسِ الثنائيّة عن طريق الجمع (*معًا في ملكوت الألق، الألق المفتوح في أعماقنا، دخلْنا الألق، وٱرقُصْ على خَطْواتِنا وٱنْبضْ بإيقاعِ الأَلَقْ، سَيَصيرُ اللَهَبُ الفائِرُ مِنْ أعْمَاقِنا أَلَقًا*)، أو عن طريق التفاعل (*أَلَقًا يَخرجُ من قَلبِكِ في ضَوءٍ ٱنْخِطافي*)، أو عن طريق التلاحم (*ٱستحَلْنا واحداً*). ولكنْ هل تتعاضدُ الحواسُّ خماسيًّا، لإنتاجِ مقياسٍ للألق عن طريق

جمعِ اتّجاهات الحواسّ المختلفة، كناتجٍ جَمْعيٍّ علميًّا لدى المتلقّي، أو كناتجٍ تعبيريٍّ لدى الشاعر نفسه؟

يبدو أنّ لكلٍّ من المواقع المعجميّة للألق حاسّتَه الصريحة أو الكامنة: حاسّة السمع (*إيقاع الألق*)؛ حاسّة النظر (*أردُّ الكلماتِ ألقاً يخرجُ من قلبكِ في ضوءِ آنخطافي* = تشبيهٌ بأداة تشبيه فعليّة = ربط الصوت/ الكلمة بالنظر/ الضوء)؛ حاسّة الشمّ (عبير *هامس للألقِ المفتوح* = تداخُل الشمّ/ العبير والسمع/ الهمس)؛ ويبدو أنّ ما اتُّفقَ على تسميته بالحاسّة السادسة لم يَغِب عن بال شاعرنا (سيصير + *وحي الشعراء*): *سَيَصيرُ اللَهَبُ الفائِرُ مِنْ أعْمَاقِنا أَلَقًا يَبْرُقُ في الدُنْيا، وَوَحْيَ الشُعَراءْ*) = التسويف الاستباقيّ المؤكَّد + إشكاليّة الوحي ضمنَ ثنائيّة نبيّ/ شاعر، في الإسلام مثلًا.

وإذا كان لكلِّ موقعٍ وردَ فيه الألقُ ثنائيّةٌ اتّصاليّة، ففيه أيضًا ثنائيّةٌ تعارُضيّة: ففيه العُلوُّ في جدليّة الأعلى/

الأسفل (*ملكوت الألقِ المنداح من فوق*)، والانفتاحُ في جدليّة الكونيّ/ الداخليّ (*للألقِ المفتوحِ في أعماقنا*)...

كذلك، حاولَ شاعرُنا أن يَبسطَ مجالاتِ العناصر الطبيعيّة، غيرَ أنّ غيابَ أحد العناصر، على عكس اكتمالِ الحواسّ حتّى بلوغِ السادسةِ منها، كان له أثرٌ بالغُ الأهمّيّة في استقراء عالَمَ سقّال: فعنصرُ الماء واردٌ في أوّل القصيدة بشكلٍ كامن (*الألق المنداح من فوق* ≈ مطر)، ونحن نؤكّدُه في دائريّة القصيدة حيث لا بدّ من اعتبار لهبِ الداخل مُحاكاةً لصاعقة الخارج الكونيّ، وفعلِ البرق مرافقًا طبيعيًّا لذلك في هذا التشبيه المؤكَّد الذي يعادل الألقَ باللهب (*سَيَصيرُ اللَهَبُ الفائِرُ مِنْ أعْمَاقِنا أَلَقًا يَبْرُقُ فِي الدُنْيا*). ويتأكّدُ عنصرُ النار في مُشتَقّ اللفظِ الواحدِ المعبِّرِ عنها (*لهب/ لهيب*)، ضمنَ الجدليّةِ التعادُليّةِ عينِها، حيثُ فيضُ الألق من اللهيب يعني اشتراكَهما في الطبيعة الواحدة: *يا لَهيبَ الخَلْقِ، فِضْ عَنْ أَلَقٍ*. عنصرُ الهواء

نلحظُه كامنًا في العبارة الآتية: "*ألق الروح*"، بمساعَدةِ مؤوِّل يونغ (Jung) الذي جعلَ، بناءً على مُعطيَين اثنين، الريحَ معادلاً للروح (Esprit/ Vent)(٣). العنصرُ الناقصُ المجاورُ للألق هو التراب، أو الأرض، وهما متعادلان لارتباطهما باللغة الفرنسيّة بلفظٍ واحد (Terre)؛ لقد توصّلْنا إلى ذلك بالمنطق، ما دعانا إلى تأويل النصّ- الشاعر على أنّه [مِن] عالَمَ اللاأرض/ اللاتُراب، أي عالَمَ الأثير باختصار (*انبثاق من غياب*)؛ كما استطعنا أن نعاينَ ذلك في الواقع المعجميّ للقصيدة، حيث ألفاظٌ مثْل "*ملكوت، فردوس*" من جهة، ولفظٌ مُعارِضٌ للاّملكوت وللاّفردوس من جهة أخرى، هو مُعارَضٌ أصلًا: فلاحظْنا غيابَ عنصر التراب في السياق الألقيّ. وبالفعل في القصيدة تغييبٌ للتراب مقصودٌ، ومُبرَّزٌ بالترقيم شكليًّا (علامة حذف + علامة تعجّب=*...!* = ثلاث نقاط تحلُّ محلَّ العناصر الثلاثة المقبولة، ثمّ علامة تعجّب تُمثّل

العنصرَ الرابع الذي يُشكّلُ خطًّا أحمرَ مرفوضًا): *رُؤْيَا مِنْ زَمَانٍ آخَر دُونَ التُرَابْ...!* تَصوُّرُنا الاختلافيُّ الأوّل لمفهوم "المعلَّقة الشعريّة" اتّضح: القصيدة = "السماءُ المعلَّقة" في الكتاب المقدّس(٤).

السهمُ الموجَّه يتحرّك: هو، أصلًا، بطبيعته متحرّكٌ لأنّ نقاطَه الجزئيّة التي تُكوِّنُه تنزعُ إلى الاندفاع صوب الاتِّجاه، وهو إذ يتحرّكُ بذاته عند شاعرنا (*دَخَلْنا الأَلَقَ الدافِقَ*)، أو بوصفه متنقِّلًا بين جُزَيئات الألق (Déplacement)، يصير قوّةً ($\vec{F}$)، ثمّ يتحوّل شُغلًا فيزيائيًّا (Travail W=F.d): هذا الإنسانُ الذي ما هدأَ يومًا، وكتبَ ثلاثَ معلّقاتٍ شعريّة بعدَ استلامِه، بوقتٍ وجيز، منصبًا إداريًّا وأكاديميًّا، أثبتَ أنّ العملَ ليس واحدًا، ليس أَحديًّا، بل هو $\vec{F1}$+ $\vec{F2}$...، ليكونَ العملُ الناتجُ هو مجموع أسهُمِ القوى الجزئيّة. هذا الشُّغلُ في

القصيدة، النابعُ من عملٍ هو مجموعُ أعمالِ العمر التي أوصلَت شاعرَنا إلى منصبه، هو حركيّةُ فعل الكلام التي تتبدّى بالتقليبات التمايزيّة للألق.

السهمُ الانتقاليّ الموجَّه ١ (تنقُّل الاختلاف في الحرف الأوّل):

ألق١ ← = علق ← + قلق ← + خلق ← + فلق ←

+ شلق ← + ملق ← + سلق ← + غلق/طلق ←

علق: لا يمكن فهمُ الاتّجاه الأوّل للألق من غير فهم الجذور اللغويّة للأفعال التي تُكوِّنُ ناتِجَه؛ فنحن للمرّة الأولى نجدُ للمعلَّقةِ مفهومًا آخرَ جديدًا، فما هي عند سقّال مكتوبة بماء الذهب، ولا هي مُعلَّقة لديه على ثابتٍ، ولا هي، أساسًا، واحدة عند شاعر – إذ هي "*الثالثة*"– ، ولا هي مُعنوَنة بمطلعٍ "عموديّ" كما درجَت العادةُ في معلّقات الجاهليّين – إذ أُلحقت بالمعادِل "*كتاب*

الألق"، ولا هي على أرض الجاهليّة - إذ انّها لا تصفُ بل تَخلق، وهي لا تُحاكي أشياءَ العصر، بل أشياء العالَم المخلوق، بكلمات العصر... من هنا تَردُّدٌ للفظة "علَق" في القرآن الكريم، وبذاك يكون الشاعرُ مُوفِّقاً بين الديانات(٥)، ولكنّه مُخالِفٌ اللهَ في عنصر التراب، ومُبتدئٌ خَلقَه مباشرةً بالنطفة(٦): *انْكَشَفْنَا قُوَّةً كَالخَلْقِ [...] دُونَ التُرَابْ ← جَمَعَ اللَوْنُ بِنا أَزْمَانَهُ وَالتَمَّ كَالنطْفَةِ فِينا.*

زدْ على ذلك أنّ مُعلَّقةَ الشاعرِ الثانيةَ(٧) تنتهي بمقطعٍ وردَت فيه لفظةُ "ألق"، كما أُعيدَ إثباتُ هذا المقطعِ عينِه على غلافها الخَلفيّ لِترِدَ مجدَّدًا لفظةُ "ألق" (*تَتساكَنُ الدُنيا بِنا وَنَرُدُّها أَرْضاً مِنَ الأَلَقِ الطَويل*)، لذلك فالمعلّقة الثالثة متعلّقةٌ بذاتها عن طريق المعادَلة بين الجذرين "علق/ألق" (*المعلّقة الثالثة/أو كتاب الألق*)، ومتعلّقةٌ بالمعلّقة السابقة عن طريق التصاقِ عنوانها على صفحة الغلاف الأولى، بالصفحةِ الأخيرة وصفحةِ الغلاف الخَلفيّ للمعلّقة

الثانية، ما جعلَ هذا الالتصاق مُضاعَفًا، وثيقًا من جهة، واستمرارًا من جهة أخرى، أي إثارةً للمفهوم "مُعلَّقة بـ" وليس "معلَّقة على".

قلق: في قوله "*وَشُدَّ الواقِعَ الفارغ بالحُلْمِ لِينزاحَ القَلَقْ*"، وردَت كلمةُ "*قلق*" حرفيًّا، وبمستوى التعبير الاستفهاميّ مستوىً للمحتوى كامنٌ يعبّر عن قلقٍ وجوديّ حولَ ماهيّة الإنسان التي هي مزيجٌ نفسيٌّ صُوِّرَ بتمازُجِ حاسّتين اثنتين (*مَنْ، إذًا، نحْنُ؟ عَبيرٌ هامِسٌ لِلألَقِ المفتوحِ في أَعْماقِنا؟*)، ما حوّلَ مستوى التعبير، بفعلِ مستوى المحتوى الجديد وبفعل التمازج الصوتيّ للاختلاف اللسانيّ، إلى مستوىً جديدٍ للتعبير.

ونحن لم نشهدْ ذِكرًا لفظيًّا آخرَ للقلق، تماماً كما حصلَ الأمرُ مع لفظ "*التراب*"؛ فكما أَنّ هذا الأخيرَ ذُكِرَ ليسَ في-ذاته، بل لـ-نقضِ ذاته (*دونَ التراب*)، هكذا ذُكر القلقُ لنقضِ ذاتِه أيضاً (*ينزاح*). فعالَمُ الخلق الأثيريّ

هو عالمُ الحلم الذي اتّكأت عليه القصيدة (*أَلَق يَمسَحُ قَلْبَ الكوْنِ بالحُلْمِ*)، هو، إذًا، أيضًا، عالَمُ الطمأنينة. وهذا هو سببُ خلقِه من داخل النفس، كمواجَهةٍ للخلق المفروض من الخارج.

خلق: تَبيّنَ عالمُ القصيدة خَلقًا لكلّ عنصرٍ من عناصر الطبيعة دونَ التراب: كلٌّ من النار والماء والريح هو عنصرٌ حركيٌّ امتداديٌّ إلى فوق (النار تصعد إلى الأعلى دائمًا)، أو من فوق (صورة المطر التي كوّنّاها لدى الشاعر)، أو في أيِّ اتّجاه (الريح). بذلك يبدو الخلقُ قوّةً فاعلة بمعنى السهم الموجَّه ($\overrightarrow{F}$)، لا جمادًا بمعنى السهم الموجّه صفر (Vecteur nul $\overrightarrow{0}$)، كما يبدو، في تعبير الشاعرِ نفسِه متّخذًا تصوُّرَ القوّة: *أَنْكَشَفْنَا قُوَّةً كَالخَلْقِ [...] دُونَ التُرَابْ*). في هذا التشبيه المقرون بضمير المتكلّم، دلالةٌ على أنّ الخلقَ هو إعادةُ الخلق. ونظرًا إلى

أنّ الشاعر يضربُ الواقعَ، وهو ابنُ الواقع ، فهو ليس بمالكٍ أدواتِ الـ-"كُن فيكون"، ولذلك فخَلقُه يستحيلُ من غير عناصر الكون- حتّى إن أقصى بعضها لِعدمِ توافُقِه مع عالَمه المخلوق. لا معجزة، إذًا، هنا، بل سحرٌ أو لغزٌ (*كُنّا في ضَميرِ العالَمِ المسْحورِ لُغْزَ الخَلْقِ في سِرِّ الكِيَانِ + يَفُتُّ الواقِعَ المركومَ فينا، ويرُدُّ الخَلْقَ خَلْقًا*).

كيف يكون الخلقُ في داخل المخلوق؟ ذاك هو اللغز. أَيكون الخلقُ هو الذات، وهي مخلوقةٌ أصلًا؟: *باتَ الخَلْقُ فينا ذاتَنا*. تيكَ العبارةُ يوضِّحُها الآتي، حيث الخلقُ = الخلقُ في الذات، بمعنى التغيير أو التحويل؛ "قوّة الخلق" هي سهمُ القوّة الذي يغيّر اتّجاهَه بتغيير وجهتِه من واقع التحت إلى الفوق، من واقع الخارج إلى الداخل، من واقع الكون إلى الذات (*يا لهيبَ الخلق [...] غيِّر واقعَ الأشياء + واعْتَرَتْنا قُوَّةُ الخَلْقِ فَغَيَّرْنا الكيانا*).

الحركيّةُ، كما أسلفْنا، هي حركيّةُ العناصر التي تُكوِّنُ الكونَ المخلوق، وهي تاليًا حركيّةُ المكان (*النبض*). ولكنّ الشاعرَ لم ينسَ أنّ الإنسانَ متعيِّنٌ في الزمكان (-Espace Temps)، ما يعني أنّ عليه التنبُّهَ إلى ضرورة خلقِ زمنٍ مُغاير. ولكنْ كما المكانُ المغايرُ مصنوعٌ من عناصرَ واقعيّة – ولكنْ بإقصاء واحدٍ من العناصر–، هكذا الزمنُ المغايرُ كائنٌ من التجزيئات الثلاثة للزمان: الأزليّة – الأبديّة – السرمديّة؛ زمانُ الكون هو زمانُ الأزمنة الثلاثة هذه كاملةً، غيرَ أنّ ديزيره سقّال أقصى منها زمانين اثنين: *نَحْنُ هذا النَبْضُ في الخَلْقِ، ونحنُ الأَبَدِيَّهْ*. الزمنُ الخَطِّيُّ (Temps linéaire)، كما السهمُ المكانيُّ الحركيُّ الموجَّه، يتوجّه إلى الأمام ليس إلّا. ثَمّةَ رفضٌ للأزليّة، وعندئذٍ رفضٌ مُضمَرٌ للسرمديّة التي لا تكون بدون الأزليّة، أي رفضُ الكون كما خلقَه اللهُ. الخلقُ عند شاعرنا بدايةٌ، ليتسنّى له استكمالُه اللانهائيّ. والبدايةُ لا نقطةَ محدَّدة لها: هي لحظة

الالتقاء بالذات/الذات الأخرى، إذًا، هي لحظةٌ انتقاليّة، هي حركيّةٌ أيضًا. لحظةُ اللقاء هذه قد تكون اللحظةَ – المرأة، التدامُجَ فيها جنينيًّا، والتدامج فيها جسديًّا أو فكريًّا. باختصار، هي المرأة – الأمّ: (*ضمير الخلقِ في الكونِ السَّحيقْ* = منذ ولادة المتكلّم حتّى اللحظة الحاليّة = الأمّ) + (*كنتِ أنتِ الوحي والشعر* = المرأة) ⟸ المرأة – الأمّ.

فلق: يتواءم الفَلْقُ معجميًّا(٨) مع الخلق السابق، وكذلك مع مفهوم الانشقاق: *أَنْشَقُّ بهِ ذَاتَيْنِ مِنْ ضَوْءٍ وَضَوْءٍ*؛ فانشقاق الواحد إلى مثنّى (*ذاتين*) عضدَ تكرارَ الضوء الذي لسببِ إبرازِ تكثيفِ الضوءِ عَنى المثنّى كذلك (*من ضوءٍ وضوء* = من ضوأين)، ما يشير إلى أنّ الذات هي مُركَّزُ الضوء، هي الفجر، من الحقل الدلاليّ للفَلْق. إثباتُ الفجر في الضوء هو ارتباطُ الضوء المنشَقّ (*نفتَّحْنا*

[...] بريقاً ≈ انفلاق الصبح) بخروج الدفء (... *خارجًا من دفءِ عينَيكِ*).

لا مجال للشَقّ إلاّ بما يرتبط بفلْق الصبح (*يشقّ الزمنَ اليابسَ كالسيف/ يبرق* + *شرار* = ضوء + دفء): *هكذا صِرْنا شَرارًا واحِدًا يَبرقُ دونَ الآخَرينا ويَشقُّ الزَمنَ اليابسَ كالسَيفِ*). والمعاناة (*يَجْبُلُ العالَمَ من نارٍ تُعاني*) في علاقتها بالخلق هي علاقةُ جهنّم بالفلق وهي من معانيه. هي جهنّمُ الأرض، لا جهنّم التي هي عكسُ السماء، هي جهنّم الحارقةُ الأرضَ، جهنّم الإيجابيّةُ، أسرعُ ما فتَّ الواقع (*يَفُتُّ الواقِعَ المركومَ فينا*)، ليكونَ في الأرضِ ما من جهنّم، بل أثرُ ما فعلَته جهنّم بواقع الأرض، أي الحلم: الجنّة الجديدة بفعلِ جهنّم. وهذه الحقيقةُ عند شاعرنا لا تعود منسجمةً والمفاهيمَ اللاهوتيّة التي تُثيرُ قضيّةَ جهنّم كنقيضٍ للجنّة، بحيث جهنّم تصبح، فلسفيًّا هنا، صانعةَ

الجنّة، انسانًا (*ارتدينا النور في الروح*)، ومكانًا (*فردوس بعيد*).

شلق: دائمًا نرى عند سقّال القدرةَ على أن يحوّلَ السلبيَّ إلى إيجابيّ: فكما جهنّم تُحرق الأرضَ لتحوّلَها جنّةً، هكذا السقوطُ هو سقوطٌ — في - المرأة، أي انغلافٌ بالطمأنينة؛ ذلك يجمع، في الحقل الدلاليّ للفعل "شلقَ"، بين السقوط والتزاوج مع المرأة(٩) دخولُ المرأةِ الحرَكيُّ في ذات الشاعر، والالتئامُ المتبادل بين الانفجار والالتقاء (*فيَّ/ فيكِ + جنوني مثلُ نارٍ تُخْرِجُ الأعماقَ/ عَرَّيْنَا المدَى عَنْ ذاتِنا/ ثمّ اتّحدنا*)، في علاقةٍ بالزمن - اللحظة (*في لحظةٍ غُفلٍ دخلتِ + التمَّت الأكوانُ في ثانية*)، ذلك هو وقتُ زمن الانهيار المفاجئ؛ ولكنْ لم يَظهرْ هذا الانهيارُ الفجائيُّ إيجابيًّا إلّا في الشاهد اللاحق، حيث فهمْنا أنّ وقتَ زمن الانهيار = وقت زمن السقوط في المرأة، على

الرغم من أنّ الحركيّةَ في الوقت الزمنيّ المعادِل هي حركيّةٌ تعاكُسيّةٌ تماماً بين السلب والإيجاب؛ الالتمام على القلب هو سقوطٌ عليه، انهيارٌ عليه، بفعل الشوق؛ الفرق، إذًا، أنّ زمنَ انهيار الحائط تلقائيٌّ، غيرَ أنّ سقوطَ الشاعر في المرأة هو دَفْعِيٌّ، بفعل الشوق (*عُدْتُ مُلْتَمًّا على قلبِكِ، مَجنونًا بتَوْقِي*). ويعودُ التشبيهُ بالنار (جنون التوق = الشوق = جنون النار = هبوب النار في لحظة = تأكيد على الزمن اللحظويّ الفجائيّ للإشعال، لكنّه إشعالٌ إيجابيّ، احتراقٌ بالحبّ).

ملق: اللافت أنّ من الحقل الدلاليّ للفعل "ملقَ" خروجَ الخاتم من الإصبع، والمحوَ(١٠). المحو واضح لفظًا (*مَحّينا الزَمانَا*)، وما كان لفعل "محّى" أن يكونَ مَحطَّ أنظارنا كمُتَلَقّين لولا التمييزُ الدلاليّ بين الصوتِ الأصيل (الهمزة) والصوتِ التمييزيّ (الميم). والأغرب من ذلك، أنّ

التجانس بين طرفَي الحقل الدلاليّ (المحو + الخروج) كان تجانسًا، أيضًا، على مستوى الموضوع – الزمن: فإخراجُ الأزمان من أزمانها (*نُخْرِجُ الأَزْمانَ مِنْ أَزْمانِها*) هو إخراجُ الشيءِ من شيئه، هو ليس الإفراغَ، لأنّ الحاويَ، أيضًا، يندثر في مثْلِ هذه المعادلة (X-X=0)، بل هو الإلغاء: إلغاءُ الزمن يعود بنا إلى مَحوه. وإذا كان التعريفُ الأساسُ للمَلْق هو خروج الخاتم من الإصبع، فإنّ التقابلَ يجعل المواءمةَ بين الإصبعِ والخاتمِ الذي يتّخذ مَقاسَ الإصبع، حتّى يكاد يمثّلُ واحدُهما الآخَر (الإصبع — الخاتم = الزمان – الزمان)، على أنّ الرابطَ الأكثرَ تواؤمًا هو الدائريّةُ: دائريّةُ المكان تتحوّل إلى الدائريّة الزمانيّة، وبذلك يكون الفراغُ في دائرة الخاتم – الزمن الخارج من الإصبع هو الفراغ من الداخل (= *ما حَولِي زمانٌ أو مكان*)، ولكنِ اللانهائيّ دائريّاً (*نحنُ الأبَديَّه*). عن طريق هذا التقريب بين سياق القصيدة والمستوى المعجميّ، توصّلْنا إلى ابتداعِ تضمينٍ

للتعبير الشعريّ هو من خارجِ هذا التعبير، وتلك نظريّةٌ عكسيّة لِما اعتدنا عليه، حيث يكونُ التضمينُ ملفوظًا داخلَ التعبير الشعريّ عينه.

سلق: بعد ما حلّلناه حتّى الآن، أمكنَنا التوصّل إلى فكرتيَ الخلقِ التصاعديّ (*الفردوس*) وأصالةِ العفويّة (الحلم + الطفولة + تعرية الأعماق). هاتان الفكرتان إن انسجمتا مع جذرٍ دلاليٍّ لانسجمتا مع جذر "س ل ق" حيث مدلولُ التسلُّق والسَليقة.

التسلُّقُ والسليقة في علاقةٍ جدليّة هنا (*طَارَتْ بي إِلى كَونْ غَريبٍ*). والتسلّقُ لم يذكره الشاعرُ صراحةً كحركة، بقدر ما أرادنا أن نتصوّرَه ضمنيًّا. هذه هي أهمّيّةُ استهلالِه المعلّقةَ بالنصب "*واقفاً*"، معمولًا من غير عامل، لأنّ ثمّة بدايةً قبلَ هذا الاستهلال هي التسلّقُ (*أرّختُ البدايات* = زمن الصعود طويلٌ للوصول إلى تلك المرحلة

من التصفّي الفوقيّ). القصيدة كلُّها هي نتيجةُ التسلّق، فالعالَمَ المصوَّرُ هو عالمٌ فوقيّ، حركيّتُه تبدأ من الفوق، والتصوُّرُ الكامنُ السابق كان حركيّةَ الصعود. لذلك نجد تكرارَ فعلِ الوقوف كنتيجةٍ لتكرارِ حركة التسلّق، وتكرارَ ألفاظٍ من قَبيل "*قمّة*". وبرأينا، لا يعودُ إعراب "*واقفًا*" حالًا مقدَّمة لفعل "*أناديكِ*"، بل لفعل الوصولِ الكامن "[وصلتُ] *واقفاً أناديكِ*"، ويصيرُ فعل "*أناديكِ*" جملةً حاليّةً استكماليّةً، أيضًا: *واقِفًا فِي قِمَّةِ الدُنْيا أُناديكِ مِنَ السَمْتِ/ وَاقِفًا فِي قِمَّةِ الدُنْيَا أُنَادِيكِ وَلي فِي عَبَقِ الرُؤْيَا مكانٌ وزمان/ وَلِي فِي قِمَّةِ الأحلامِ بيتٌ واحْتِضَانْ/ واقفًا في قِمَّةِ الدُنْيا وَأَنْتِ السَمْتِ يَمْتَدُّ*.

والسليقةُ تعودُ بالشاعر إلى عالَمَ الطفولة (*سَيَصيرُ الزمَنُ القادِمُ طِفْلًا*)، أي إلى العلاقة بالأمّ (*بيتٌ واحتضان* = مفهوم الأسرة الأولى، ومفهوم الحبّ الطاهر في حضن الأمّ)، وتصيرُ العلاقةُ الجامعةُ الشاعرَ بالمرأة هي العلاقة

بالمرأة – الأمّ من جديد، ولكنْ عن طريقِ معادَلة لاكان (Lacan) هذه المرّة: فما هي بالأمِّ فحسب لأنّ القصيدةَ بكاملها تنسف الواقع، ولا هي بالمرأة فحسب لأنّ امرأةً عاديّةً لا تناسبُ خلقَ زمكانٍ فوقَ الواقع. أمّا المرأة – الأمّ فتحتمل عند لاكان رمزيّةً وخيالًا في علاقة الإنسان برغبته (Tripartition Symbolique/ Imaginaire/ Réel)[١١].

"قمّة الأحلام" و"الطيران إلى كونٍ غريب" يناسبان الخياليَّ، وتاليًا يتآلفان مع العالَم المخلوق؛ والرمزيُّ يتآلف مع رموز "*الفردوس*"، أو "*الشراع*" مثلًا.

وكي تكتملَ معادَلةُ لاكان[١٢]، على الأقلّ في مصطلَحها قبلَ أبعادها، بحثْنا عن الجزء الذي تكثّفَت فيه الرغبةُ التزاوُجيّة، فإذا بالعينين أو الشفتين– وهما بصيغة التثنية – هما ما يُرغَب فيه من جسد المرأة، وعند شاعرنا هما يتّخذان أسمى الأبعاد العُلويّة والعُمقيّة – لتعلُّقِ كلٍّ

منهما بالمدى: *كَالأَلَقِ الغامِرِ أَطْرافَ المدى مِنْ شَفَتَيْكِ؛ حاصَرَنا الثلجُ نَقِيًّا +كَشَفَتْ عَيْنَاكِ عَنْ سِرِّ السَمَاءْ + لا شَيْءَ سِوَى عَيْنَيْكِ فِي هذا المدى المغْمورِ بالضَوْءِ...*

وإذا ربطْنا عبارة "*نحن الأبديّه*" بعبارة "*سَيَصيرُ الزمَنُ القادِمُ طِفْلا*"، تأكّدنا من الزمان الذي لا يتّجه صوبَ الأزليّة للعودة إلى زمن الطفولة، بل إنّ زمان الطفولة يتّجه إلى زمن الأبديّة، وهذا مُحصّلتُه أمران اثنان: أنّ الشاعر يبحث عن المرأة – الأمّ، لا الأمّ، لأنّ الأمّ لا يمكن أن تكونَ نقطةَ التقاءٍ بين المستقبل والطفولة معًا إذ انّها تُشرِكُ الطفولةَ بالزمن الماضي فحسب؛ وأنّ الضمير المتكلّم المثنّى "*نحن*" الذي بات يعادل الطفل، غيرُ ممكنٍ بغير الواحد/ الاثنين "الطفل–في–الأمّ" (= *كالنُطفةِ فينا*). في الواقع يَجري الأمرُ كذلك، أمّا في العالم الرمزيّ التقدُّميّ، فلا يكون الاتّحادُ ممكنًا إلاّ بالمرأة – الأمّ، وهذا تحليلٌ آخَر يُثبتُ مجدّدًا هذا المفهومَ الاتّحاديّ.

غلق/ طلق: الانطلاقُ (*انْثُرِ الأحلامَ أُفقَ المنطَلَق*) في المطلَق (*نرُشُّ المطلقَ المفتوح*): هكذا نلخّصُ الجذر "ط ل ق" عند سقّال. وهنا علاقةٌ جدليّة بطبيعة الأمر بين المطلقِ والنسبيّ، المفتوحِ والمغلق (*في ضيق المكان + مدانا واسعٌ كالمطلَقِ المفتوح/ في أعماقنا* = مفتوح في المغلق = تمدُّد المغلق ليتّخذَ شكلَ المفتوح).

واثنان أفضلُ من واحد: عمقُ الذات الواحدة، متى اتّحدَ بذاتٍ ثانية، باتَ المكانُ المغلق (*العمق ← الأعمق*)، مضاعفًا يتّجهُ نحوَ اللامُغلق، ومع التمدّد يحتملُ صفةَ المطلقيّة إلى حدٍّ بعيد: *وَمَعًا نَحْنُ القَضِيَّهْ: كُلُّ ذاتٍ مُطْلَقٌ + كُلُّ ذاتٍ أَخرَجَتْ مِنْ ذاتِها تَوأَمَها، ثُمَّ التَأَمْنا فجأَةً.*

إنّ العلاقة انغلاق/انفتاح هي انزياحٌ لفظيّ- لكنِ ائتلافٌ دلاليٌّ مفهوميّ للعلاقة انفجار/ اجتماع التي غالبًا

ما رأيناها في معلَّقة الشاعر، على المستويين الكونيّ والذاتيّ.

السهمُ الانتقاليّ الموجَّه ٢ (تنقُّل الاختلاف في الحرف الثاني): ← = ← + ←

ألق٢ أرق أفق

إنّ التعبير الآتي "*كُنّا هَمْسَةَ الوَحْيِ التي تَسْكُبُ زَهْوَ الشِعْرِ فِي الليلِ الصَفيقْ*"، ما كان ليُعتبرَ أكثرَ من صورةٍ شعريّة، لولا استخلاصُ مفهوم الأرق لسانيًّا: فالأرقُ نفسُه حركيٌّ، وهو بالتالي سهمٌ موجَّه (*صَفيق*)؛ والمعطى الأوّلُ الذي يؤكّدُه هو مدلولا "الهمسة والشعر" في علاقتهما بحركيّةٍ متجلّية (*تسكب+زهو*). الليلُ زمنٌ خارجيٌّ كونيٌّ إذاً، فيما اللا–ليل هو الزمنُ الداخليُّ النفسيّ (أرق محتمَل ≠ *أَفِقْ*). وإذ انّ الأفقَ هو الواقعُ الطبيعيُّ للعالم الفَوْأرضيّ، فهو يتواءمُ مع أفق الذات الانسانيّة التي باتت الأفقَ غيرَ الطبيعيّ للعالم الرمزيّ

الفَوأرضيّ: *وانثُرِ الأحلامَ أُفْقَ المُنْطَلَقْ [...] أَيُّها القَلْبُ الذي صارَ أَليفًا+أَخُطُّ الكَوْنَ فِي حَرْفِي وَأَبْني بِيَراعي أُفُقَ السَّمْتِ* ⟸ زهو الشعر = قلب/ (حرف + يراع).

السهمُ الانتقاليّ الموجَّه ٣ (تنقُّل الاختلاف في الحرف الثالث): ← (ألق٣) = (← (–ألم) = ← (ملأ)) + ← (ألف)

الألمُ مُقصى عند ديزيره سقّال، لأنّ العالمَ الذي تَصوّرَه مكانًا وزمانًا وشخصيّاتٍ لا يكتملُ بدون تصوُّرِ حالةٍ تعمُّ ذلك كلَّه. وكما أشياء أخرى أُقصِيَت عن عالم الشاعر، كالتراب من العناصر، وكالأزليّة من الزمان، وكالجماد من الكائنات، وكالأسفل من الاتّجاهات، هكذا ما كان من الحالات الانسانيّة سوى السهمِ الموجَّه ← (–ألم) المعبَّر عنه بنقض الألم (*لِعُمْرٍ لانِهائيٍّ بَعيدٍ عَنْ فِخاخِ الزمَنِ المرِّ*)، أو بمعادِله الموضوعيّ الإيجابيّ ← (+فرح) (*يَتَقَرّى الفَرَح الناهِدَ مِنْ*

أشيَائِهِ)، أو بمعادِله الرياضيّ الذي يقلبُ حَدَّي السهم الموجَّه (Extrémités du vecteur) (⟵ = ⟵)
–أ ل م م ل أ

حيث العودةُ الى الفضاءِ اللانهائيّ غيرِ البعيد في القصيدة عن مفهوم "الملأ"، كالجسم المالئِ المكانَ (الذات/ الفضاء) أو تعالي العقولِ المجرَّدة (الخيال والرمز لخلقِ عالمٍ عُلويّ) والنفوسِ الكُلّيّة (الذات/ الذاتان)(١٣).

يبدو أنّ القلبَ هو العنصرُ المحتضنُ المكانَ والآخَر، وهو نواةُ الفضاءِ ورابطُ الخارجِ بالداخل والتفجُّرِ بالاتّحاد: فالمشاعرُ تتفجّرُ لتُنتجَ الاتّحادَ بالذات وبالآخر. متى كانَ الفرحُ هو الصيغة النفسيّة الوحيدة التي تعمُّ الفضاءَ المخلوق، ما كان من مكانٍ لسِوى الإحساس، القلب. المعلّقة كُتبت بالعقل، بيدَ أنّ مفاهيمها مُتصوَّرةٌ باللاعقل، أي هنا بالقلب من جانب، أو بما فوق – العقل من جانبٍ آخر. ولعلّ اقترانَ القلب بمُشتَقٍّ من الجذر "أ ل

ف" (= *أليف*) جعلَ الكونَ المخلوقَ متآلفًا مع خالقه، إذ انّ العودةَ إلى العقل، وهو المنطق، يُعيدُ نقضَ الخياليّ والرمزيّ والطفوليّ والالتئاميّ: *أَيُّها القلبُ الذي صارَ أليفًا ورقيقًا كالرحيقِ، غَنِّ هذا العالمَ الخارجَ من أعماقِنا؛ أَيُّها القلْبُ الذي صارَ أليفًا لَوِّنِ النجْمَ بنا؛ أَيُّها القلْبُ الذي صارَ أَليفًا قُدْ خُطانا في مَعاريجِ الفضاءْ.*

ناتِجُ ذلك أنّ القلبَ هو سببُ هذه الحركيّةِ والتقلّباتِ والتقليبات الاختلافيّة الخَفيّة. وتكرارُه عشرَ مرّاتٍ في المعلّقة ليس عارضًا. وهو سهمٌ موجّهٌ تَقلُّبيٌّ اختلافيٌّ بطبيعته، كما "*الألقُ*" سهمٌ تقلُّبيٌّ، لسانيًّا، بالاختلاف التمايزيّ الصوتيّ. هو يختصرُ ألقَ المعلّقة، إذ انّ سياقَه معادلٌ لسياق الألق، خصوصًا لجِهة الحواسّ: *أَيُّها القلبُ الذي صارَ أليفًا ورقيقًا كالرحيقِ* (خلط الشمّ باللمس)؛ *غَنِّ هذا العالمَ الخارجَ من أعماقِنا* (صفةٌ صوتيّة

له = السمع)؛ *أَيُّها القلْبُ الذي صارَ أليفًا لَوِّنِ النجْمَ بنا* (*لوِّن* = النظر)؛ *واقْرَأْ سُطُورَ الحاضرِ الْمَعْجونِ بالآتي* (العجين = الذوق الرمزيّ للزمان التقدُّميّ + الحاسّة السادسة في قراءة المستقبل). ولكن كيف كنّا اهتممنا بالكلمة–المفتاح "القلب"، لو لم نتنبّه إلى صيغة "ألف" ورصدْناها في صفة "*أليف*" التي ما اقترنَت بسِوى الموصوف "قلب"، وبشكلٍ تكريريّ؟ وكيف كنّا استطعنا أن نجعلَ هذا العضوَ–النواة من الجسم الانسانيّ معادلًا للعنصر–النواة للمعلّقة "ألق"، تقلُّباتٍ وتطابُقًا تكوُّنيًّا؟

ربّما كان "القلب" المتكرّر في القصيدة هو سبب التقلّبات من ألقٍ إلى ألق، بل قُل هو سببُ الانتقالاتِ المفاجئةِ والمترابطة في آن، وربّما كان "فعلُ الإحساس" مرتبطًا بفعل الكلام، ليأتيَ الألقُ في وقتٍ واحدٍ تصوُّرًا للقلب، وكذلك ناتجًا جامعًا لتألّقاتٍ تعبيريّةٍ متباعدةٍ

الاتّجاهات موضوعاتيًّا. القدرةُ الجامعة بين التقلّباتِ القلبيّة والتقلّباتِ التألُّقيّة، تكشّفَت لنا من خلال مفهومِ "الاختلاف" بين الدوالّ (Signifiants). واختزالُ القصيدة في تقلّبات الألق/ القلب جعلَ الدراسةَ النفسيّةَ غيرَ نابعةٍ من علم النفس بحدِّ ذاته، بل من فعل الكلام (Acte de langage).

نحن قُمنا بتفكيك مفهوم الألق لسانيًّا لنصلَ إلى مفاهيمَ مُتشظّيةٍ، ولكنّها غيرُ بعيدةٍ عن التماسك، وإنْ كانَ هذا التماسكُ نفسُه تقلُّبًا. فحتّى التقلّبُ هو تماسكٌ لأنّه مفهومٌ ما، إلاّ أنّه يبقى في تدفّقٍ انحرافيٍّ كلّما اقتربَ من مركزيّةٍ دلاليّةٍ ثابتة. لقد كنّا تفكيكيّين لشاعرٍ بدا تفكيكيًّا، وأَرجأْنا النواتجَ غيرَ المباشرة، وبقيَ الألقُ مُرجَأً، إلى حين تُفهمُ هذه المداوَرةُ الصوتيّة الاختلافيّة. على القارئ أن يفهمَ أنّه في مِثلِ هذه القصيدة، عليه أن يُرجئَ

فهمَ النصّ إلى ما بعدَ التحليل الاختلافيّ اللسانيّ الذي يتحوّلُ تفكيكيّاً باعتمادِ اصطلاح درّيدا (Derrida) (Différance= Différence + Déférance). أمّا الشاعر فكان تفكيكيًّا في ضربِ الواقع، ورفضِ الخلق الالهيّ كما هي عناصرُه التكوينيّة والمكانيّة والزمانيّة، وفَضِّ الجماعة بالثنائيّة وفَضِّ الثنائيّة بالذات الواحدة، ثمّ تفجيرِ الذات الواحدة في ثنائيّة الذاتين، وذلك كلُّه في إطارٍ من التعالي (Transcendance) على المدلولات المركزيّة للُّوغوس، بخَلقِ مفاهيمَ جديدةٍ لها.

وهو، مع ذلك، حاولَ بين الحين والآخر، أن يُعمِلَ العقلَ؛ إلاّ أنّ العقلَ نفسَه فقدَ مركزيّتَه: فأداتا الربط الاستنتاجيّتان "*هكذا* و *إذاً*" أكّدَتا أنّه لا بدَّ من إصدارِ نواتجَ حول المعلّقة. وإذا كان على القلب ألّا يستنتجَ، أو كان على الشعرِ نفسِه ألاّ يستنتج، فنحن وجدْنا أنفسَنا،

في ظلِّ الحقيقةِ التعبيريّة الاستنتاجيّة، أمام مركزيّتين فُكِّكَتا بالمنطق: فلو لم يستنتجْ شاعرُنا هنا لَتعبَ، لأُرهِقَت ذاتُه من التعالي المتنقِّلِ غيرِ المنتهي بخلاصة: هو يريد أن يرتاحَ بتوصُّله إلى خلاصة، لَكأنّه في ذلك يجعل الأسبابَ السابقة للنتائج، أسبابَ التعالي والنقضِ والخلق المتمايز، حاصلةً لا محالة، حتّى يصدِّقَ هو نفسُه العالمَ الذي خَلق. فالخلاصةُ المنطقيّةُ تعني أنّ أسبابَ الخلق صائبةٌ، إذ لا مجالَ لأنْ تبدوَ هذه الأسبابُ اللامنطقيّةُ منطقيّةً في ذاتها. هكذا يطمئنُّ إلى أنّ هذا العالمَ "صارَ"... مع التأكّد أنّه عالمُ الالتئام، عالمُ استنتاجاتِ الإجابات (*هكذا*) عن تساؤلاتٍ استنتاجيّة (*إذًا*...؟): *مَنْ، إذًا، نَحْنُ*؟؛ *هَكَذا، في لَحْظَةٍ غُفْلٍ دَخَلْتِ* + *هكذا صِرْنا شَرارًا واحِدًا*.

أمّا المركزيّةُ الثانيةُ التي تمَّ تفكيكُها فمركزيّةُ العقل؛ ومع أنّ الاستنتاجَ برزَ تعبيريًّا، إلاّ أنّه بقيَ، دلاليًّا، بعيدًا من الواقع لأنّه خلقُ اللاواقع أساسًا. إذًا،كنّا أمامَ عقلٍ عقلانيٍّ ولاعقلانيّ في آن. وما وجدْنا حلًّا لذلك بِسِوى التسليمِ بدراساتٍ علميّةٍ حديثة تعتبرُ العقلَ مركزُه القلب، أو تفترضُ العقلَ هو القلب بعينه(١٤). هكذا كان الاستنتاجُ، كما النواتجُ، على أساس القلب، أو على أساسِ تصديق القلبِ المتخيِّلِ والمرَمِّز، لقد كان استنتاجَ الـ"كُن فكان"...

د. أديب سيف

الحواشي

١ - يراجع ميشال زكريّا: الألسنيّة علم اللغة الحديث (مبادئها وأعلامها)، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٣٧-٢٣٨

٢ – استندنا، معجميًّا، في موادّ الكلمات إلى بطرس البستاني: محيط المحيط (قاموس مطوَّل للّغة العربيّة)، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٧؛ ونكاد لا نجد فيه لفظة "ألق" بفتح اللام، على أنّ المعنى العامّ للمصدر هو التلألؤ والالتماع، أي الارتكاز على حاسّة وحيدة لا غير، ما لا يعطي مفاهيمَ الألقِ السياقيِّ حقَّها.

٣ - Cf. C. G. Jung: Dialectique du Moi et de l'inconscient,éd. Gallimard-nrf,Coll. Folio-Essais, 2001, n° 46,p.41,44

٤ - أيّوب، ٢٦/٧: يُعلِّقُ الأرضَ على العَدَم.

٥ - القرآن الكريم، سورة العلق ٩٦/ ١-٢: ﴿اقرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ﴾

٦ - في سورة الحجّ ٢٢/ ٥ :﴿فإنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾

٧ – يراجع: ديزيره سقّال: المعلّقة الثانية (أو كتاب الذاتين)، ط١ ، ٢٠١٢ ، ص ٦٢-٦٣

٨ - يراجع محيط المحيط مادّة "فلق": فلقَ الشيءَ شقَّه؛ فلقَ اللّهُ الصبحَ شقَّه بكشف الظلام عنه؛ الفَلَق الصبحُ أو الفجرُ والخَلْقُ كلُّه؛ الفَلَق أيضاً جهنّم أو جبٌّ فيها.

٩ – يراجع: المصدر نفسه، مادّة "شلق": شَلَقَ المرأةَ جامَعَها؛ العامّة تقول "شَلَقَ الحائطُ" أي سقطَ بعضُه.

١٠ – يراجع: المصدر نفسه، مادّة "ملق": مَلَقَ الشيءَ مَحاه؛ مَلِقَ الخاتمُ من الإصبع خرجَ.

١١ – Cf. Jacques Lacan: Ecrits II(Texte intégral),Coll. Points-Essais, n°21, éd. Du Seui l,1999, La structure(Le symbolique, l'imaginaire, le réel) ,Index raisonné des concepts majeurs p.373

١٢ – Cf. Michel Lapeyre & Marie-Jean Sauret: Lacan(Le retour à Freud),Paris,éd. Milan,Coll. Les Essentiels Milan, 2002, n°171, p.21; $\frac{\text{Nom-du-Père}}{\text{Désir de la Mère}} : \frac{\text{Désir de la Mère}}{\text{Signifié au sujet}} \rightarrow$ Nom-du-Père ($\frac{\text{A}}{\text{Phallus}}$)

١٢ – Cf. Michel Lapeyre & Marie-Jean Sauret: Lacan(Le retour à Freud), Paris, éd. Milan, Coll. Les Essentiels Milan, 2002, n°171, p.21; $\frac{\text{Nom-du-Père}}{\text{Désir de la Mère}} : \frac{\text{Désir de la Mère}}{\text{Signifié au sujet}} \rightarrow$ Nom-du-Père ($\frac{\text{A}}{\text{Phallus}}$)

١٣ – يراجع: محيط المحيط مادّة "ملأ": الملأُ عند الحكماء الجسمُ لأنّه يملأ المكان؛ الملأُ الأعلى هي العقولُ المجرَّدة والنفوسُ الكُلّيّة.

١٤ – يراجع العقل والقلب، www.Myblogreemas.blogspot.com/2009/12/ ؛ دراسة علميّة تؤكّد أنّ عقل الإنسان بقلبه وليس برأسه، www.almesryoon.com/permalink/7048.html

- ١ -

واقِفًا فِي قِمَّةِ الدُنْيَا
أُنادِيكِ مِنَ السَّمْتِ
وَمَا حَوْلِي زَمَانٌ أَوْ مَكَانٌ...
وَاقِفًا فِي قِمَّةِ الدُنْيَا
أُنَادِيكِ
وَلِي فِي عَبَقِ الرُؤْيَا
مَكانٌ وَزَمَانْ...
كُلَّمَا لامَسْتُ أَعْماقَ المدَى
أَرَّخْتُ للدُنْيَا بدَاياتٍ،
وَلِي فِي قِمَّةِ الأحلامِ

بيتٌ واحْتِضَانْ...
كُلَّمَا شَرَّعْتُ ذَاتي
وَتَقَرَّيْتُ تَلاوِينَ حَياتي
عَرَّتِ الأَلْوانُ أَعْماقي
وَطَارَتْ بي إِلى كَونْ غَريبٍ –
مَنْ، تُرى، يَكْتُبُني في الحُلْمِ؟
مَنْ يَسْكُنُ تاريخي وَلَمْ أَعْرِفْ بهِ
غَيْرَ كِيانٍ طَالِعٍ مِنْ عَبَقِ الأَلْوانِ
أَنْشَقُّ بهِ ذَاتَيْنِ
مِنْ ضَوْءٍ وَضَوْءٍ...
مَنْ أَنَا إِنْ كُنْتِ فِي ذَاتِي الكِيَانْ؟
ضَيَّعَتْني صَلَوَاتي،
غَابَ فِيَّ الصَمْتُ أَلْوانًا
وَرَاقَبْتُ الثَواني
تَتَرامى دُونَ قَلْبي كَي أَراكِ...

آهِ، ثُمَّ انفجَرَتْ فِيَّ الأَمَاني
وَتَرامَيْتُ بِذاتِيَّ اللتَينِ الْتَمَّتَا
فِي لَحْظَةٍ غُفْلٍ...
وَعَرَّتْنِي يَدَاكِ
مِنْ ذُهُولِ المسْتَحيلِ.
اُحْتَرْتُ...
لَكِنّي رَمَيْتُ التَيْهَ عَنّي
حِينَ سَوَّرْتِ كِيَاني
بالضبَابِ الأَحْمَرِ المُنْهَلِّ مِنْكِ
عَلَى رُوحِي...
وَكَانَتْ كُلُّ رُوحي
لا تَرَى شَيْئًا سِواكِ!
هَكَذا، فِي لَحْظَةٍ غُفْلٍ
دَخَلْتِ...
اُلْتَمَّتِ الأَكْوانُ في ثانِيَةٍ

ثُمَّ ٱنْكَشَفنا،

وَعَرَفْنَا،

وَٱتَأَمْنا فِيَّ، يا ذاتي، وَفيكِ...

وَحَمَلْنَا بَعْضَنا

كَالنَسَمِ الآتي مِنَ الفرْدَوْسِ

أَوْ

كَالأَلَقِ الغامِرِ أَطْرافَ المدى

مِنْ شَفَتَيْكِ...

- ٢ -

كُلَّمَا أَوْغَلْتُ فِي ذَاتي
تَكَشَّفْتِ لِعَيْني
مِثْلَ وَحْيٍ أَبْيَضٍ
يَرْسُمُني فِيكِ لِكُلِّ الشُّعَرَاءْ.
وَإِذا حَاصَرَنَا الثَّلْجُ نَقِيًّا
كَشَفَتْ عَيْنَاكِ عَنْ سِرِّ السَّمَاءْ...
كُلَّمَا أَوْغَلْتُ فِي ذاتِي
تَراءَيْتِ
وَلا شَيْءَ سِوَى عَيْنَيْكِ
فِي هذا المدى المغْمورِ بالضَّوْءِ...

تَجَلَّيْنَا
كَسِرٍّ فِي ضَميرِ الكَوْنِ.
كَانَتْ لَحْظَةً
نازِلَةً مِنْ سِدْرَةِ الفِرْدَوْسِ
فِي عُرْسِ الصَّفَاءْ...
وَاكْتَشَفْنَا
أَنَّنَا أَقْدَمُ مِنْ تَارِيخِنَا المنْهوكِ.
عَرَّيْنَا المدَى... عَنْ ذاتِنا،
ثُمَّ ٱتَّحَدْنَا
وَعَرَفْنَا أَنَّنَا نَحْنُ القَضَاءْ،
وَعَرَفْنَا
أَنَّ رُوحَيْنَا لَهِيبٌ،
وَسِوَانا روحُهُ طِينٌ وَماءْ!

- ٣ -

مِثْلَما يَنْتَشِرُ النُورُ عَلى وَعْرٍ
مَلِيءٍ بالشَّجَرْ
وَيُغَطّي كُلَّ مَا فِيهِ
بمَدٍّ مِنْ حَريرٍ
وَدُرَرْ...
هَكَذا وَجهُكِ يمَتَدُّ بقلبي
مِنْ أثيرٍ عُلَويٍّ
وغُبارَ الضوءِ،
وَالحُلْمِ،
وَأَفْراحِ الزَّهَرْ...

كُلَّما لامَسْتُهُ أَدْرَكْتُ رَبّي،
وَٱتَراني مِن ذُهُولِ الخُلْدِ
ما يَجعَلُ لِلأَحلامِ وَقْعًا
كضَجيجِ الصَّمْتِ
في مَوْجِ الفِكَرْ...
كُلَّمَا لامَسْتُهُ
أَيْقَنْتُ أَنّي
في مدَى قلبِكِ زَهْوٌ
وحُضورٌ لا يُبالي،
لَيسَ يُخْفيهِ ظلامٌ أو ليالي،
كُلَّما لامَسْتُ في وَجْهِكِ وَجْهي
والتَأَمْنا ضَاقَ فِينا الْكَوْنُ
وَالْتَمَّ بِحَرْف مِنْ سُؤَالي:
مَنْ، تُرَى، نَحْنُ؟
تُرَانا سَحَرٌ

وَزَّعَهُ اللهُ عَلى الدُّنْيَا
لِيُلْفِي الناسُ أسرارَ السَّحَرْ؟
أَوْ عَبيرٌ
ضَاعَ مِنْ زَهْرِ المدى
كَي يَسْكُبَ الزَّهْرُ
تَواشيحَ الجَمالِ؟
كُلَّما لامَسْتُ في قلبِكِ قَلْبي
وَٱلْتَأَمْنا
فَاضَ فينا النُورُ أحلامًا
وَشَقَّتْ بِسَنانَا الأَمْكِنَهْ...
صَارَتِ اللحْظَةُ عُمرًا سَرْمَدِيًّا
وَٱخْتَفَتْ بِرُؤَانا الأَزْمِنَهْ...
كُلَّمَا لامَسْتُ فِي قلْبِكِ قَلْبي
وَٱلْتَأَمْنا
شَعَّ مِنّا الأَلَقُ الضَوْئِيُّ

فِي مَدِّ النَظَرْ،
وَشَعَرْنَا أَنَّنا كَوْنٌ غَريبٌ،
وعَرَفْنَا أَنَّنا...
نَحْنُ القَدَرْ...

- ٤ -

كَيْفَ كُنّا

فِي ضَميرِ الغَيْبِ سِرَّيْنِ

وَحُلْمًا بلقاءٍ كالسَرَابْ...

كُلُّنا يَحْملُ فِي أَعْماقِهِ "آخَرَهُ"

مِثْلَ سَديمٍ

موغِلٍ في الصَمْتِ.

وَٱنْداحَتْ رُؤانَا

عَنْ حُضورٍ

وٱنْبِثاقٍ مِنْ غِيابْ.

وَتَكاشَفْنا،

ٱنْكَشَفْنَا قُوَّةً كَالخَلْقِ،
رُؤْيَا
مِنْ زَمَانٍ آخَرٍ
دُونَ التُرَابْ...!
كَيْفَ كُنّا
فِي ضَميرِ الغَيْبِ حُلْمَيْنِ
يَرُجّانِ حُضورَ الآخَرينَا
وَيَشُقّانِ يَبَاسَ الزَّمَنِ المرْكُومِ فِينا!
وَتَجَلَّيْنَا ٱنتِظامًا في حضورِ العِشْقِ
مِنْ أَيقونَةٍ
وَشَّحَها لَونُ الضَّبابْ...
وَٱحْتَوَيْنَا الكَوْنَ
فِي لَحْظَةِ زَهْوٍ
ذَرَّ ثَلْجُ الحُلْمِ فِيها لَوْنَهُ،
وَحُبورُ العِشْقِ

أَرْخَى فِي مَداهَا كَوْنَهُ...
كُلُّ مَا فِينا ٱنْكِشافٌ
لَخَّصَ الكَوْنَ بِحَرْفٍ
فِي كِتابْ...!

- ٥ -

كُلَّمَا أَوْغَلْتُ فِي ذَاتي

تَكَشَّفْتِ لِعَيْني

أَرَجًا

أَلْوانُهُ شِعْرٌ رَقيقْ،

وسَكَبْتِ الكَوْنَ في ذَاتي رَذاذًا

عَابِقًا بالضَّوْءِ.

كُنّا هَمْسَةَ الوَحْيِ

اُلتي تَسْكُبُ زَهْوَ الشِعْرِ

فِي الليلِ الصَّفيقْ.

ومَعًا في مَلَكُوتِ الألَقِ المُنْداحِ

مِنْ فَوقُ
نَذُرُّ الأَبَدَ الصافي
على الوقْتِ
فَيَنْحَلُّ هَباءً،
وَنَرشُّ المطْلَقَ المفتُوحَ
في ضِيقِ المكانِ —
نُخْرِجُ الأَزْمانَ مِنْ أَزْمانِها
أَوْ يَستَحيلَ العُمْرُ مِفْتاحًا
لِعُمْرٍ لانِهائِيٍّ
بَعيدٍ عَنْ فِخاخِ الزمَنِ المرِّ
ونُقْصانِ الزَمانِ.
كُلَّمَا أَرَّخْتُ عُمري
كُنتِ فِيهِ
خارجَ العُمْرِ...
وكُنتِ السَّمْتَ في أَمْداءِ عينَيَّ

وَأَلْوَانَ الطريقْ...
كُلَّمَا أَرَّخْتُ ذاتي
كُنْتِ أَنْتِ الذاتَ في كُلِّ حَياتي،
كُنتِ أَنْتِ الوَحْيَ والشِّعْرَ،
ونورَ الكلماتِ
وَضَميرَ الخَلْقِ في الكَوْنِ السَحيقْ...
وَإذَا خَطَّتْ يدي حَرفًا
رأيْتُ الحرْفَ مِنْ عَينَيْكِ
يَمْتاحُ البَريقْ...

- ٦ -

وَمَعًا نَحْنُ فَضاءُ الشِّعْرِ،
نَحنُ الأَبَدُ الصاهِلُ
في وَجْهِ الزَّمانِ...
وَمَعًا نَحنُ ضِياءُ الوَحْيِ للدُنْيَا
وَنَحْنُ الخالِقانِ.
تَفْتَحُ الأَرْضُ طريقَ القَبَسِ العُلْوِيِّ
والأَزْهارُ شَعْرُ السِّحْرِ...
كُنّا
في ٱنْخِطافِ الوَحْيِ
لَوْنَ النورِ،

كُنّا

في ضَميرِ العالَمِ المسْحورِ
لُغْزَ الخَلْقِ في سِرِّ الكِيَانِ...
تَفْتَحُ الأرْضُ طَريقَ القَبَسِ العُلْوِيِّ
وَالأشْيَاءُ في الدُنْيَا حُروفٌ وَمَعاني،
وَمَعًا نَحْنُ انْخِطافانِ
إلى كُلِّ سَنِيٍّ
وَكُشوفاتٍ سَنِيَّهْ،
فَلِماذا نَقرَأُ الأَشْيَاءَ في الأرْضِ
ونَحْنُ الأَبْجَدِيَّهْ؟

- ٧ -

كُلَّما أَوْرَقَ فينا الشِّعْرُ
ضاءَتْ شُعُبُ الذاتِ
ومَهَّدْنا الدروبا
وَتَفَتَّحْنا على الكَوْنِ بريقًا
لَمَّ فيهِ المُنْتَهى
والأَبَدَ الصاهِلَ فينا
خارجًا مِنْ دِفْءِ عَينَيْكِ طَروبا...
كُلَّما ضَيَّعْتُ ذاتي
عُدْتُ مُلْتَمًّا على قلبِكِ،
مَجنونًا بتَوْقِي،

وجنوني مثلُ نارٍ
تُخْرِجُ الأعماقَ نَحوَ المستَحيلِ.
ٱشْتَاقَتِ الدُنيا إِلَينا
حينَ كانَتْ كُلُّ ذاتٍ
ترتَمي في آخَرٍ،
لكِنَّها تَعرِفُ
أَنَّ الكُلَّ فيها،
أَنَّنا، دُونَ المدى، مُلْتَقِيانِ.
كُلُّ ذاتٍ
أَخرَجَتْ مِنْ ذاتِها تَوأَمَها،
ثُمَّ ٱلتَأَمْنا، فجأةً،
فوقَ الزمانِ.
هكذا صِرْنا شَرارًا واحِدًا
يَبرقُ دونَ الآخَرينا
ويَشقُّ الزَمَنَ اليابسَ كالسَّيفِ،

يَفُتُّ الواقِعَ المركومَ فينا،
ويردُّ الخَلْقَ خلْقًا،
يَجْبُلُ العالَمَ من نارٍ تُعاني.
كلُّ ذاتٍ
أَخرَجَتْ من ذاتِها تَوْأَمَها
ثُمَّ ٱلْتَأَمْنا
وٱرتَدَيْنا النورَ في الروحِ
لنرقى نحوَ فِردَوسٍ بعيدٍ
مُسْتَعادٍ في الكِيانِ.
مَنْ، إذًا، نُحْنُ؟
عَبيرٌ هامِسٌ
لِلأَلَقِ المفتوحِ في أَعْماقِنا؟
مَنْ نَحْنُ؟ –
سِرٌّ في ضَميرِ الغبْطَةِ المفتوحِ،
أَوْ

وَحْيٌ إِلَهِيٌّ
يُحيلُ الزَّمَنَ الصَخْرِيَّ شِعْرًا،
ويردُّ الحاضِرَ المكسورَ زَهْوًا
في مَتاهاتِ المكانِ.

- ٨ -

ليسَ فينا غَيرُنا،
والقلبُ فردوسٌ منَ الزَهْوِ الدَّفيقِ.
ليسَ فينا غَيرُنا.
كُلُّ المدى نَبْضٌ بِنا
والحلْمُ يَزهو في البريقِ.
وَاكَبَتْنا الأبَدِيَّهْ،
وَصَبَبْنا العِشْقَ مِفْتاحًا،
دَخَلْنا الأَلَقَ الدافِقَ،
صارَ الصَّمْتُ فينا أَبْجَدِيَّهْ...
كَلَّلَتْنا أُغنياتُ الخَلْقِ،

بات الخَلْقُ فينا ذاتَنا
والشِّعْرُ في أَضواءِ عَينَيْكِ رَفيقي...
رَقَصَ الكونُ بنا
وانْفَتَحَتْ في عالَمِ القلبِ
أغانٍ عُلَوِيَّهْ —
أَيُّها القلبُ الذي صارَ أليفًا
ورقيقًا كالرحيقِ،
غَنِّ هذا العالَمَ الخارجَ
من أعماقِنا،
وٱرقُصْ على خَطْواتِنا،
وٱنبضْ بإيقاعِ الأَلَقْ،
وٱنظُمِ الأَيّامَ عِقْدًا من حُبورٍ،
وٱنثُرِ الأحلامَ أُفْقَ المُنْطَلَقْ...
أَيُّها القلْبُ الذي صارَ أليفًا
لَوِّنِ النَّجْمَ بنا

واقْرَأْ سُطُورَ الحاضرِ
ٱلْمَعْجونِ بالآتي،
وَشُدَّ الواقِعَ الفارغَ بالحُلْمِ
لِينزاحَ القَلَقْ...
أَيُّها القلْبُ الذي صارَ أَليفًا
قُدْ خُطانا في مَعاريجِ الفضاءْ:
سيصيرُ الشِّعْرُ مِعراجَ رُؤانا،
ويصيرُ العِشْقُ مِفْتاحَ السَّماءْ.

- ٩ -

غَدُنا في قَلْبِنا،
والزَّمَنُ الغابِرُ جِزْءٌ
مِنْ شَراراتِ اللَهَبْ.
غَدُنا نَحْنُ،
ونَحْنُ الخَطْوُ فِي مُسْتَقْبَلِ الدُّنيا
عَلى أَرْضِ العَجَبْ.
جَمَعَ اللَوْنُ بِنا أَزْمَانَهُ
وَالتَمَّ كالنطْفَةِ فِينا
فَتَواتَرْنا عَلَيْهِ،
وَتَقَرَّيْنَا ضَميرَ السِّرِّ

إِذْ كَوَّرَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ،
وَٱنْكَشَفْنَا،
وٱسْتَحَلْنَا واحِدًا مِنْ أَلَقِ الروحِ
وَمَحّينا الزَمانَا،
وٱعْتَرَتْنا قُوَّةُ الخَلْقِ
فَغَيَّرْنا الكِيانا،
وَعَرَفْنا مَلَكُوتَ الزَهْوِ،
حاوَرْنا ٱرتِعاشاتِ الأَعالي
ورَحَلْنا في رُؤانا... —
لَيسَ فينا غَيرُنا،
وَمَدانا
واسِعٌ كالمطْلَقِ المفتوحِ في أَعْماقِنا.
مَنْ نَحْنُ
في هذا العَبيرِ المرتِمي في الوَحْيِ؟ –
نَحْنُ الوَحْيُ،

والشِّعْرُ،
ونحنُ الجَوهرُ الأَعْمَقُ
في سرِّ القَضِيَّهْ،
كُلُّ شيءٍ حَولَنا
ينحلُّ في الأَرْضِ
ضبابًا ودُخانا
غَيرَ روحَيْنا...
فَمَنْ نَحْنُ؟
لهيبٌ دافِقٌ في عَصَبِ الدُنْيا
وأَحلامٌ سَنِيَّهْ —
نَحْنُ هذا النَّبْضُ في الخَلْقِ،
ونحنُ الأبَدِيَّهْ!

- ١٠ -

وَاقفًا في قِمَّةِ الدُّنْيا
وَأَنْتِ السَّمْتِ يمْتَدُّ،
وَعيْناكِ شِراعي...
ذاتُنا واحِدَةٌ
وَمَدَانا مُتْرَفٌ كالشِّعْرِ
فِي حَرْفِ يَراعي،
غَيرَ أَنّي
ساكِنٌ في صَرْحِ عَيْنَيْكِ
أَخُطُّ الكَوْنَ فِي حَرْفي
وَأَبْني بِيَرَاعي أُفُقَ السَّمْتِ،

أَرُدُّ الكَلِماتْ
أَلَقًا يَخرجُ من قَلبِكِ
في ضَوءِ انْخِطافي
لِيُشِيعَ الغبْطَةَ البيضاءَ
في عُمْقِ الحياةْ...
واقِفًا فِي سَمْتِ عَينَيكِ
أرانا
رايةً خَفّاقةً تُومِئُ لِلكَونِ
كَما يُومِضُ نورُ اللفظةِ البِكْرِ
بِحَرْفَيْنِ
تَجَلَّتْ مِنْهُما الأَشْياءُ:
"كُنْ"!
يا لَهيبَ الخَلْقِ،
فِضْ عَنْ أَلَقٍ
يَمسَحُ قلْبَ الكَوْنِ بالحُلْمِ،

وَغَيِّرْ واقعِ الأَشْياءِ
إِذْ يَكتُبُها الشِّعْرُ،
مُضِيئًا،
وانتَظِرْنا:
يَدُنا حَرْفُ البداياتِ
ٱلتي تَنْزِلُ مِنْ فَوْقُ،
ونَحْنُ النَّسَمُ الأَوَّلُ
في جِسْمِ السَّماءْ...
لَيسَ فينا غَيْرُنا،
وكلانا واحِدٌ،
يا لَهَبَ الخَلْقِ،
كِلانا يَرسُمُ الزَّهْوَ
عَلَى وَجْهِ الفَضاءْ...
سَيَصيرُ الزمَنُ القادِمُ طِفْلًا
يتَقَرّى الفَرَح الناهِدَ منْ أشيَائِهِ،

وَيَصيرُ السِّحْرُ وَحْيَ الأَنْبياءْ...
سَيَصيرُ اللَهَبُ الفائِرُ مِنْ أعْمَاقِنا
ألَقًا يَبْرُقُ في الدُّنْيا،
وَوَحْيَ الشُّعَراءْ...

*****

كُلُّ شَيْءٍ صارَ فينا
عابِقًا بالضَّوْءِ،
مَسْحورًا،
وَبَيْنَ الصَّمْتِ والنطْقِ
مدًى يَبْرُقُ مِنْ زَهْوٍ،
وَعيدٌ مِنْ سَناءْ...
كُلُّ شَيْءٍ صارَ مِنْ ضَوْءٍ،
وَفِينا
تَخْرُجُ الأَشْياءُ مِنْ حَيِّزِها
وَلْهى،
وتَنْحَلُّ أَثيرًا خارِجًا مِنْ دَمِنا.

كُلُّ المدى صَيْفٌ،
وَبَيْنَ الصَّيْفِ والصَّيْفِ رَبيعٌ
أَخْضَرُ الوَهْجِ،
عَمِيقُ النَّبْضِ.
بَينَ الذاتِ والذاتِ
مدًى كالظِّلِّ شفّافًا،
وَأَرْضٌ مِنْ بَهاءْ،
وَتراجِيعُ كِيانٍ واحِدٍ
يَخْتَزِلُ التاريخَ في مِعْراجِهِ المفْتوحِ.
بَيْنَ الذاتِ والذاتِ
أَثيرٌ لازَمانِيٌّ،
وَكَوْنٌ لامَكانِيٌّ،
وفِرْدَوسٌ يُوَشّيهِ الصَّفاءْ،
ومَعًا نَحْنُ ٱنتِشارُ الوَحْيِ
في خارِطَةِ الشِّعْرِ،

وَإِشْراقُ الرُؤَى بالمنْتَهى،
والجَسَدُ المُنْحَلُّ في النُّورِ
ضَبابًا أَوْ هَواءْ،
ومَعًا نَحْنُ القَضِيَّهْ:
كُلُّ ذاتٍ مُطْلَقٌ، أوْ أَبْجَدِيَّهْ،
ومَعًا... نَحْنُ القَضاءْ!

******

سَيَصيرُ الزمَنُ القادِمُ طفلًا
يتَقَرّى الفَرَح الناهِدَ منْ أشيَائِهِ،
وَيَصيرُ السِّحْرُ وَحْيَ الأَنْبياءْ...
سَيَصيرُ اللَهَبُ الفائِرُ مِنْ أعْمَاقِنا
أَلَقًا يَبْرُقُ في الدُّنْيا،
وَوَحْيَ الشُّعَراءْ...

(٢٤/ ٥ – ٢/ ٦/ ٢٠١٢)

ديزيره سقال

المعلقة الرابعة

(أو كتاب العِشق)



مقدمة

كانَتِ المعَلَّقاتُ عندَ العربِ، في العَصرِ الجاهِليّ، مِنْ أنْفَسِ القصائدِ التي كتبَها الشعراء. وَقِيلَ إنّها كُتِبَتْ بماءِ الذَهَبِ وعُلِّقَت على جدرانِ الكَعْبَة. ولكنَّ هذا الرأيَ فيهِ مِنَ الخَطَإِ ما يجعَلُنا نَشُكُّ كثيرًا في صِحّتِه، لأنَّ العربَ الجاهليّين كانوا، بمعظمِهم، أُمّيّين، وأكثرُ الشُّعراءِ أيضًا، فَلِمَنْ يَكتبون؟ ولمنْ يُعَلِّقون على جدرانِ الكعبة ليُقْرَأَ؟ من هنا نَميل إلى الرأيِ الذي يقول إنَّ المعلّقةَ سُمِّيَتْ كذلك

لأنّها من الأَعْلاق، أيْ مِنَ الأَشياءِ النَفيسَةِ، فتكون تلكَ القصائدُ عيونَ الشعرِ العربيِّ في ذلكَ العصر.

والمعلقةُ قصيدةٌ مُسْتَمَدّةٌ مِنْ حياةِ صاحبها، وكثيرًا ما تكونُ من مراحلَ عديدةٍ عاناها، وَمَرَّ بها. فهيَ مرتبطةٌ بشكلٍ وَثيقٍ بأحداثِ حياته. وَهي، بذلك، جزءٌ من وِجْدانِه، وقطعةٌ من تُراثِه تُمَثِّلُ أَغْنى ما عندَه، وأَثْمَنَ ما وضعَهُ مِنْ شِعْر. وهي عبارةٌ عَنْ قصيدةٍ طويلةٍ، لأنَّ أطولَ المعلقاتِ تَبْلُغُ مئةً وثلاثةَ أبياتٍ (وهما معلّقتان: أولاهما لِعَمْرو بن كُلثوم، والثانية لطرفةَ)، وأقصرها من خمسةٍ وأربعين بيتًا (لعبيد بن الأبرص، لمن يعتبر المعلّقاتِ عشرًا)، وهي قصائدُ طويلة جدًّا قِياسًا على القصائدِ الجاهليّةِ التي لم تصلْ بمعظمها إلى هذا القدرِ من الأبيات.

لهذا السبب اخترتُ المعلقاتِ عناوينَ لدوايني الخاصّةِ الأربعةِ حتّى الآنَ، تناولْتُ فيها أحداثًا كبيرةَ القيمةِ مِنْ حَيَاتي، وتأمُّلاتٍ في جوهرِ الوجودِ، والحياةِ، والإبداعِ، والكتابةِ، مرُكِّزًا على فكرةِ أنَّ الشعرَ أقوى من الزَّوال، ويجعلُ مَنْ يَكتبُهُ يُسَيطرُ على الحياةِ به، ويَتَحدّى الموتَ، لأنَّ الفنّانَ الأصيلَ عمومًا، والشاعرَ الأصيلَ خصوصًا، يَخْلدُ من خلالِ إبداعاتِه، فيبقى حيًّا، في حينِ أنَّ الآخرين محكومون بالزوال.

إنّ القوّةَ الكامنةَ في الشعرِ لا يمكن أن يُعطاها إلّا مَنْ يتورّطُ به، ويجعلُه جوهرَ حياةٍ. ولسْتُ هنا أتكلّمُ على النظْمِ الذي يعمَلُ فيهِ صاحبُه على تَركيبِ أبياتٍ مُزخرَفَةٍ، يُظْهِرُ فيها مهارتَه، أوْ قوّتَه في الزخرفة، بل أُريدُ هنا ما كان شِعْرًا حقًّا، أصيلًا، يُبدِع فيه الشاعرُ وجودًا جديدًا،

يكونُ في أكثرِ الأحيانِ أقوى من وجودِهِ العاديِّ الهشِّ. فالشاعرُ الحقُّ ليسَ إنسانًا عاديًّا، بل مُبدِعٌ، يُزَامِلُ اللّهَ في عمليّةِ الخَلْقِ، ويتحوّلُ مِنْ خلالِ هذا إلى خالدٍ، يُضيءُ وجودَ الآخرين بالأملِ، والألَقِ، والجمالِ، والابتكارِ. فالشِّعرُ الأصيلُ، مهما كان موضوعُه، رؤيا تَسْتَشْرِفُ، ونَبْضٌ جديدٌ تحتَ قِشْرَةِ العالمِ البَليدِ، يَكْسِرُ المنطقَ ويتحدّاه، ويَكونُ هو الردَّ الأقوى على نَثْرِيَّةِ العالَمِ، وجليدِ العَقْلِ. الفنّانُ، والشاعرُ خصوصًا، يملكُ قوّةً أكبرَ بكثيرٍ من قوّةِ المَناطِقَة، لأنّهُ يَعْمَلُ مِنْ خِلالِ الحَدْسِ، والحَدْسُ مسألةٌ ترتبطُ بالفَوْق، بالوَحْي، يَسْتَشْرِفُ الحدَثَ، ويستقرئُ الآتيَ، مِنْ خلالِ الداخلِ الذي ينبضُ بالحياة. وهو شخصٌ لا يَهْرَمُ، ولا تتراجعُ عزيمتُه في معركتِهِ مَعَ الزمن، فيبقى سيّدًا عليهِ، ويبقى أقوى مِنْهُ على الدَوَام.

لقد حَبَتِ الطبيعةُ الشعراءَ مقدرةً مميِّزةً جعلَتْهُم نورًا في أعماق العالم، مهما كانَتْ فيهِ الظروفُ تحمِلُ ظَلامًا، أوِ الأحداثُ تُمَزِّقُ جَسَدَ الواقعَ، لأنّهم يَتَنَزّلون ضميرَ الأمّةِ في ضميرِهِم، ويَتَقَمّصون همومَ الناسِ والذواتِ في كِياناتهم، ووَحْدَهُم مَنْ يستطيعون أن ينقُلوا اهتزازاتِ ضميرِ أمّتهِمْ، وهمومَها، وأحداثَها، بعدَ أن تنغمسَ داخلَ أعماقهم، وتَصيرَ جزءًا منهم. لهذا السببِ فإنّ الشعراءَ محكومٌ عليهم بالمعاناةِ الدائمةِ، على شتّى المستوياتِ، بِفِعْلِ حساسيّتهِم التي لا يملكُها سواهم، وبفعلِ قُدْرَتهم على نَقْلِ هذه المعاناةِ في الرؤى والصورِ التي لا تعود ملكًا لهم، بلْ للأمّةِ كلِّها.

كلُّ مُعلّقةٍ من معلّقاتي فيها لونٌ خاصٌّ، عَرَفْتُهُ في حياتي: مِنْ مُعاناةٍ للصراعِ والحبِّ والألمِ، ومِنْ حوارٍ مع

أعماقِ ذاتي التي شَطَرْتُهَا ذاتَيْنِ، في بعضِ الأحيانِ، أو تَقَمَّصْتُ من خلالِ الحبِّ والعِشْقِ ذاتَ المعشوقِ، في ضَرْبٍ مِنَ التَحليقِ الذي يتحدّى طبيعةَ الفكرِ، وابتذالَ الواقعِ، وعرَضيّةَ الأحداث.

فالمعلّقةُ الأولى كانتِ استجماعًا لما ترك أثرًا في حياتي مِنْ أَعْراضِ الوقائِع، أَفْضَى بي إلى تحدّي الموتِ، بِتَعَالٍ كَبيرٍ، مِنْ خلالِ الشِّعْرِ. وكانَتْ هذهِ المعلَّقَةُ مفاجئةً لي، فَخِلْتُنِي أكتبُ قصيدةً قَصيرةً، مِنْ غيرِ أنْ أعرِفَ ما حَدَاني على كِتَابَتِها، ولكنَّني أَخَذَتْنِي الحالَةُ، وبَقَيْتُ أيامًا ثلاثةً مُنْخَطِفًا أكتُبُ وأَرتاحُ، بلا تَوَقُّفٍ، حتّى أنجَزْتُها؛ وَوَقَفْتُ أمامَها مَذهولًا حينَ قَرَأْتُها للمرّةِ الأولى كاملةً؛ وعَرَفْتُ أنَّ قوّةَ الشِّعْرِ المنبثقِ مِنْ أعْماقِ الذاتِ أقوى مِنْ أَنْ يَستوعِبَها فكرٌ يَعْقلُ، أو منطقٌ يحدُّ؛ وأدركْتُ أنّ

الشِّعْرَ، متَى التَهَبَتْ في الشاعرِ شرارتُهُ، لا يستطيعُ أن يُخْمِدَها، بَلْ تَسيرُ به سَيرًا حَثيثًا إلى ضفافٍ تختارُها هيَ، لتَتَوقَّفَ عندَها، وتهدأَ.

أمّا المعلّقةُ الثانية فقد فاجأتْني بدورِها، وأنا أمامَ ذاتٍ ثانيةٍ، هيَ جزءٌ مِنْ ذاتي، ضاعَتْ مِنّي سنينَ طويلةً، ثمّ اكتَشَفْتُها فَجْأَة بيضاءَ كالثلج، فانبَثَقَتْ منّي، وسارَتْ بي إلى فِرْدَوْسٍ مِنَ الحلم كُنْتُ قَدْ فَقَدْتُهُ أعوامًا طويلةً، أو رُبّما كُنْتُ أبحثُ عَنْهُ طَوالَ حَياتي، فتَجَلّى لي مِنْ زَوايا الكِيانِ، مُضيئًا، حاملًا في طَيّاتِه أروعَ ما في الحلمِ، وأَبْعَدَ ما في تَصاويرِ الخَيال. هكذا قرَأْتُ في المعلّقَةِ الثانيةِ ذاتي في ذاتٍ أخرى، وَاسْتَمْرَأْتُ كِياني في آخرَ هو كيانٌ ثانٍ مِثْلَه. لهذا السببِ أَسْمَيْتُها "كتابَ الذاتَيْنِ".

وفي المعلَّقةِ الثالثةِ تَعَرَّفْتُ إلى الأَلَقِ في حالةِ عِشْقٍ أَعادَتْ إليَّ الفردوسَ المفقودَ، وَجدّدَتْ في قرارتي نورَ الله، فكانَ مَا أَسْمَيْتُهُ "الألقَ" مُنبثِقًا مِنَ الآخَرِ، فِيما هو يحاصرُ كِيانيَ كُلَّه، وَمُنبثقًا، بدَورِهِ، من كِياني ليحملَه الآخرُ، ولا نهايةَ له. بهذا انبثقَ العالمُ مجدّدًا منْ هاتَينِ الذاتين، وحَمَلَ مَعالِمَ التَكوينِ الجديدِ، ومَعَالِمَ الإنسانِ الذي بَشَّرْتُ به في المعلّقة الأولى، "مُعلّقةِ ديزيره سقال"، وهوَ الذي يَكْسِرُ الموتَ والزمانَ المغيِّبَ بالشِّعْرِ، ويخطُّ هوَ القَضاءَ. ولكنّ الشِّعْرَ صارَ الآنَ يحمِلُ أيضًا مَعالِمَ العِشْقِ، فصارَ العِشْقُ شِعْرًا، فيما تَخَطّى الشِّعْرُ حُدودَ المعروف.

وفي المعلّقةِ الرابعةِ صارَ هذا العِشْقُ لَهَبًا يُعيدُ التكوينَ في عالَمي، ويَقضي على فُتاتِ النقصانِ الذي ينثرُه الزمنُ في سَيْرورتِهِ القَصيرة؛ ذلكَ لأنّ ذاتي التي

عَشِقْتُ، والتي تجلّتْ هنا كائنًا ثانيًا مِنْ لحمٍ ودمٍ، خَرَجَتْ تمامًا مِنْ غِيَابِهَا، وانكَشَفَتْ في الزمانِ زمنًا أَبْعَدَ مِنْهُ، وأَكْثَرَ امتلاءً وَحَقيقةً. وكانَ هذا التلاقي الذي بَدَأَ في المعلّقَةِ الثانيَةِ بِمَنْزِلَةِ الأُنشودةِ البِكْرِ التي لم تَتَلَفَّظْ بها شَفَةٌ، ولا سَمِعَتْهَا أُذُنٌ مِنْ قَبْلُ: أُنشودةِ الأناشيدِ، أوِ الأنشودةِ المستحيلةُ التي تَصِلُ إلى ما لا يَكونُ، وتَفْتَحُ بَابَ الجُنونِ الخَلاّقِ على مِصراعَيْهِ. مِنْ هنا ينبثقُ اللهبُ الذي يُحرقُ فيهِ كلَّ شيءٍ معروفٍ، ليبدَأَ الوجودُ كالنارِ الأثيريّةِ، حينَ أصيرُ أنا والآخرُ المعشوقُ "واحِدَيْنِ" في الذاتِ، لا انْفِكَاكَ لهما، ولا ازْدِواج.

ولَكِنّ كُلَّ هذهِ المعلّقاتِ تَدورُ في حَلَقَةٍ واحدةٍ، أساسيّةٍ، هيَ الشِّعْرُ الذي يُحَوِّلُ حالاتِ الوجودِ إلى خَلْقٍ مُسْتمرٍّ، ويُضيءُ الكِيانَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكتشفَ الشاعرُ،

مَرّةً بَعْدَ مَرّةٍ، أنّهُ هُوَ الخالِدُ، والحقيقةُ الوحيدةُ الثابتَةُ بَيْنَ أَعْراضِ الكونِ وَزَوَائِلِه، وهي الفكرةُ التي كنتُ قد عَبَّرْتُ عنْها في المعلّقةِ الأولى.

وَلَيْسَتْ هذه المعلّقةُ الرابعةُ مُجرّدَ قصيدةٍ مِنْ بَيْنِ قَصائدَ أُخرى، بَلْ هِيَ ولادةُ حياةٍ جديدةٍ، تختلفُ عَنْ كُلِّ الحَيَواتِ، وَتَكوينٌ جديدٌ يَنْضافُ إلى التكوينِ العامّ. بَعْدَهَا لا يعودُ للأشياءِ الطعمُ نفسُه، كما لا يعودُ لها الطعمُ نفسُه مَعَ كلِّ نَصٍّ شِعْرِيٍّ جديد. وتجربةُ هذهِ المعلّقةُ خاصّةٌ جدًّا، لأنّها تَكْشِفُ عَنْ نارِ الشِّعْرِ التي تَرْتَفِعُ بصاحبِها إلى كونٍ آخَرَ، هُوَ فِرْدَوْسٌ شِعْرِيٌّ ليسَ كَمِثْلِهِ فِرْدَوْسٌ، ولا يُمْكِنُ أَنْ يكونَ إلاّ مرّةً واحدةً، فلا يتكرّرُ مُطلَقًا، بعدَ أنْ تَمَّ تَكوينُهُ مِنْ داخلِ الذات.

القصيدةُ حَدَثٌ يَكونُ مَرّةً واحدةً؛ وكُلُّ ما يأتي بَعدَها ليسَ إيّاها، ولا هو مُتَحَرِّكًا حولَ مَرْكَزِها، فالقصيدةُ لا مركزَ لها، لأنّها تتحرّكُ بشكلٍ حَلزونيٍّ، لا دائريٍّ، باتّجاهِ الأعلى، وتَبْني حولَها، فيما هي تتحرّك صُعُدًا، آفاقًا لا عَهْدَ للمرءِ بها مِنْ قَبْلُ، ولَنْ يكونَ له عَهْدٌ بها، مِنْ بَعْدُ، أيضًا؛ فالنصُّ لا يتكرّرُ، وكاتِبُ هذا النصِّ، بدَوْرِهِ، لا يتكرَّرُ شَخْصُهُ، لأنّه لا يكونُ عَيْنَهُ حِينَ يُعاودُ الكتابةَ. والشاعرُ لا يكرّرُ نفسَهُ أبدًا، مَهْمَا تشابَهَتْ كِتاباتُه، لأنّ لِكلّ كتابةٍ منها وَضْعَهَا المختلفَ، وحالَتَها المميَّزَة؛ وكلُّ نصٍّ يُعَبِّرُ عَنْ جزءٍ مِنَ الحياةِ الشخصيّةِ، هُوَ جزءٌ مُنْفَتِحٌ على التحوُّلِ والأسئلةِ، يُكَمِّلُهُ جزءٌ آخَرُ يأتي في مرحلةٍ لاحقةٍ. لهذا يمثّلُ كلُّ جزءٍ وحدَةً كاملةً، مُسْتَقِلةً نظريًّا، ولكنّها ناقِصَةٌ في جوهَرِها، لأنّ الآتيَ هو الذي يُضيفُ إليها، ويُوَسّعُها، ولكنّهُ لا يحدُّها. مِنْ هُنا فالنَّصُّ الأَرْوَعُ،

عِنْدَ الشاعرِ، أيِّ شاعرٍ أصيلٍ، هو النصُّ الذي لم يكْتُبْهُ، أو لم يَتَمَكَّنْ مِنْ كِتَابَتِه.

في كلّ قصيدةٍ يُعيدُ الشاعرُ بناءَ ذاتِهِ، ويُعيدُ كِتابَتَها مرّةً أُخرى، بشكلٍ مُغايرٍ، مختلفٍ عَمّا سبق، فيخلُقُها مُجَدَّدًا. ولِهذا السبَبِ، يبدَأُ بالقصيدةِ هذه الذاتَ، كأنّه لمّا يتعرّفْ إليها. ولكنْ هَلْ يُمْكِنُ أنْ يَعْرِفَ الشاعرُ ذاتَهُ في يومٍ مِنَ الأيّام؟ لا أظنُّ هذا. فذاتُهُ في حالِ انكشافٍ مستمرٍّ، ولذا فهيَ في حالِ انْبناءٍ مُستمرٍّ، إلى ما لا نهاية. إنّه يتركُ في قصيدتِهِ ظلًّا لذاتِهِ، على القارئ أنْ يُكْمِلَهُ، وَيُضيفَ إليهِ ما لم يَقُلْهُ هوَ. وغيرُ هذا ليسَ بِشِعْرٍ. النصُّ المبنيُّ على الكلماتِ ليسَ هوَ النصَّ كلَّهُ، بل ظلٌّ له، لأنّ جوهرَه هو الأثَرُ الذي يفتَحُهُ في الذاتِ الأخرى، والأسئلةُ التي يفتَحُها فيها. الشِّعْرُ يُثيرُ

الأسئلةَ، ولكنّهُ لا يقدّمُ إجاباتٍ، ويحثُّكَ على التأمُّلِ والشُّعورِ والتفاعلِ، ولكنّه لا يقدّمُ لكَ أحاسيسَ ناجزةً، ولا هدوءًا يُريحُ. إنّه كَلِسانِ اللهَبِ يُحرّكُكَ فيما هو يَلْسَعُكَ، ويَتْرُكُ أثَرَهُ على جِلْدِ كِيَانِكَ، ولكنّهُ أثرٌ بلا شكلٍ مُسْبَقٍ، يُعطيهِ كيانُكَ الشكلَ الذي يرتاحُ إليه. الشِعْرُ يُحَرِّضُ، ويُخَرِّبُ ما ارتاحَ فيكَ مِنْ يَقينٍ، ويُزَعْزِعُهُ، ويَضَعُكَ وجهًا لوجهٍ أمامَ اللاامألوفِ. وكلّما ظَنَنْتَ أنّكَ أَمْسَكْتَ مَعَهُ بزِمامِ الأمور، عُدْتَ لِتَكْتَشِفَ أنّ ما أَمْسَكْتَ به ليس إلّا سرابًا ووهمًا، وأنّ عليكَ أَنْ تُعيدَ الكَرَّةَ لِتُمْسِكَ بزمامٍ آخرَ، لا يلبَثُ أنْ تَنْكَشِفَ لكَ سَرَابيَّتُهُ، ويَسيلَ مِنْ بينِ أصابِعِكَ كالزئبقِ، إلى ما لا نهايةٍ...

هذا هوَ الألَقُ الذي أتحدّثُ عَنْهُ في الشِّعْرِ، وهو ليسَ ألَقًا عاديًّا، بل ألَقٌ لانهائيٌّ مِنَ الانكشافِ المستمرِّ، سواءٌ أكانَ في إطارِ الفكرِ، أوِ الحبِّ، أوِ العِشْقِ... إنّهُ ألَقُ البحثِ الدائمِ، والانكشافِ الدائمِ، حيثُ ترى الأشياءَ كُلَّ مَرّةٍ في مَظْهَرٍ مختلفٍ، فَتَعِي أنّكَ تُدْرِكُها للمَرّةِ الأولى، وأنّ ما أدرَكْتَ مِنْ قَبْلُ ليسَ أكثرَ مِنْ وَهْمٍ مُخَادع. حتّى الحبُّ، تَظُنُّ أنّكَ عَرَفْتَهُ، فَتَكْتَشِفُ أنّ ما عَرَفْتَهُ مِنْهُ ليس إلا قِشْرَةً بسيطةً أو ظلًّا بسيطًا لما هو أكثرُ بكثير، ولا تَلْبَثُ أنْ تُدْرِكَ أنّه حَلَقَةٌ لا تنتهي مِنَ التَحوّلاتِ والامتداداتِ، لا يملُكُ أحدٌ أَنْ يَقبضَ على زِمَامِها. هذا هُوَ العِشْقُ الذي أَعرضُهُ في المعلّقة؛ فهوَ حالٌ لا تنتهي مِنَ التجلّي، ولَهَبٌ غَريبٌ يُومِضُ إيماضًا، ولا يَلْبَثُ أَنْ يَتَحَوَّلَ إلى أنشودةٍ غَريبةٍ، تَنبثقُ مِنْ داخلُ، لتحملَكَ إلى كلِّ ما هو في الخارجِ، وتُذيبُهُ فيكَ في أنشودةٍ لا تنتهي

مِنَ الانكشافاتِ. إنّه حالةٌ لا تهدأُ مِنَ التحوّلاتِ المتجدِّدَةِ، لا يمكنُ أَنْ يُقبضَ عليها، ولا أَنْ يُعرَفَ أوّلُها أو آخرُها. وهي حالٌ مرتبطةٌ بالألقِ كلَّ الارتباط.

وَمِثْلُ هذا الشِّعرُ: فبِدايَتُهُ مُفاجِئةٌ، ونهايَتُهُ أيضًا. هذَا في النصِّ. أمّا في الذاتِ، فَهُوَ يَبْدَأُ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ، وَيَسْتَمِرُّ حينَ يَنْتَهِي، ولا نَعْرِفُ أنّهُ يَسْتَمِرُّ، كَمَا لا نعرفُ أنّه بَدَأَ ولماذا. وَهُوَ يَكْمنُ داخلَنا، ولا نهاية لامتداده، ثُمَّ لا يَلبثُ أَنْ يَسْتَيقِظَ فجأةً، وَيَقُودُنا إلى أَصْقَاعٍ جديدةٍ، تَبْقَى جديدةً، ولا تَشِيخُ البتّةَ.

أخيرًا، ليسَتِ القصيدةُ نصًّا مِنْ حُرُوفٍ، بَلْ هِيَ، بالنسبةِ إلى الشاعِرِ، وقارئِ الخُطابِ، كائنٌ حيٌّ يَنمو ويحيا. إلّا أنّها لا تُشْبِهُ الكائناتِ الأخرى الحيّةَ، لأنّها لا تَتوقّفُ عَنِ النُمُوِّ، ولا تهدأُ في حَجْمٍ، ولا تَتَعَيَّنُ بزمان.

إنّها قَضيّةٌ حَيّةٌ، تَغْنَى بكياناتِ الآخرينَ، وتَجهلُ مَعنى الحدودِ؛ كُلَّما غُصْتَ عَلَيْهَا أَكْثَرَ تَكَشَّفَتْ لكَ دُرَرُها وَأَسْرارُها وَعَوَالِمُها، واتّسعَتْ لكَ مَدَارِكُهَا، وَشَادَتْ لَكَ في عالَمِكَ صُروحًا مِنْ أثيرٍ، حُدُودُها لَهَبُ الخَلْقِ، وَمُسَيِّرُها الجُنونُ المبتَكِرُ، وَمَداها اللانهايةُ.

ديزيره سقال

- ١ -

خَارِجًا مِنْ حُطامِ الزَّمانِ
إِلَى الأَلَقِ المسْتَحيلْ.
خَارِجًا مِنْ دُخَاني إِلَيْكِ
لأَبْدَأَنِي،
وَمَكَانِي ٱمْتِدادُ المدَى
وَالذُّهولُ الطَّويلْ...
أَيُّ صَبْرٍ بِلَوْنِ الكِيَانِ
يُعَتِّقُنِي كَالنَبيذِ
لِتَشْرَبَنِي شَفَتاكِ
كَإِكْسيرِ فِرِدَوْسِيَ المسْتَعَادِ؟

أَعودُ إِلَيْكِ
وَمَا خَرَجَتْ مِنْكِ ذَاتي،
وَمَا عَرَفَتْ مُقْلَتَايَ سِوَاكِ...
وَبَيْنِي وَبَيْني
مَدَاكِ الذي كَوَّنَ الكَوْنَ ثَانِيَةً
وَصَفاءُ ٱبْتِسامَتِكِ اللازَوَرْدِيَّةِ.
ٱنْكَسَرَ الوَقْتُ حينَ مَرَرْتِ
وَصارَ الزَمَانُ هَبَاءً
وَعُمري شَرَاراتِ ضَوْءٍ
مِنَ الأَلَقِ المتَفَتِّحِ فيكِ —
وَأَنْتِ الذي يَفْتَحُ الأَلَقَ المتَبَسِّمَ
في رِحلةِ الوَعْدِ.
أَنْتِ المَآلُ إِذَا خَرَجَتْ
نَحْوَ أَرْضِ الغرَابَةِ ذَاتي،
وَأَنْتِ العُلَى

إِنْ سَمَوْتُ إِلَى فَوْقُ،
أَنْتِ البِشارَةُ
وَهْيَ تَهُلُّ على الأَنْبياءِ
كَضوْءٍ تَأَلَّقَ عَبْرَ الرَمادْ،
وَأَنْتِ خُروجُ الزَّمانِ
إِلى المطْلَقِ المتَفَتِّحِ عَبْرَ المدى،
أنتِ فِرْدَوْسِيَ المستَعادْ!

- ٢ -

عائِدًا مِنْ ضَجِيجِ الأَمانِي
إِلَى حُلْمِكِ البِكْرِ
أَتْرُكُ ذَاتِي
وَأَنْسَلُّ فِيكِ
كَصَوْتٍ رَقِيقٍ
وَرِعْشَةُ زَهْوٍ تَلُفُّ حَياتِي...
تَجيئِينَ
مِنْ قِمَّةِ الضَّوْءِ
حَيْثُ المدى ذائِبٌ في الضَّبابْ
وَيَنْكَسِرُ القَدَرُ المتَعَجْرِفُ...

تَرْسُو الأَمَاني

عَلَى وَهْجِ عَيْنَيْكِ.

كُلُّ القَضَاءِ تَجَمَّعَ فِي لَفْظَةٍ

لِيَكونَ الوُجُودُ جَديدًا

تَكَوَّرَ مِنْ لَهَبٍ... لا تُرَابْ!

مَنْ أَنَا؟

كُنتْ أَسْأَلُنِي في ذُهُولِ الغِيَابِ

وَلَكِنَّني لا أُجيبُ...

أَنَا...

مَنْ تُرَاني أَكونُ؟

أَنا...

عَرَضٌ جَوْهَرَتْهُ الظُّنونُ...

أَنا شاعِرٌ

جالسٌ فَوْقَ لَوْنِ الحُروفِ

وَقَدْ ضَاقَ بالحَرْفِ

إِذْ لَمْ تَسَعْهُ حُروفٌ

فَكَوَّنَ مِنْ ذاتِهِ

لُغَةً كالسَّرابْ

وَقامَ إِلَيْكِ...

شَفِيفًا كَما الروحِ

يَعْجُنُ مِنْ ذَاتِهِ كَوْنَهُ

وَيُغَمِّسُ رِيشَتَهُ بابْتِسامَتِكِ البِكْرِ

كَيْ يَصْنَعَ الحَرْفَ مِنْكِ

وَيَأْوِي إِلَى نُورِ عَيْنَيْكِ

يَنْهَلُ مِنْهُ المعَاني

وَيَتْرُكُ قِشْرَتَهُ

فِي غُبارِ الزَّمَانِ،

وَيَرْحَلُ فِي أُفْقِه

أَبَدِيَّ الشَّبابْ...!

***

مَنْ أَنا؟
يَنزِلُ الخَلْقُ مِنْ سَمْتِهِ
وَيُجَالِسُني كَصَديقٍ أَليفْ
يَنزِلُ الموْتُ مِنْ بُرْجِهِ
وَيُصادِقُني
في هُدُوءٍ شَفيفْ...
يَخرُجُ الوقْتُ مِنّي، ويَسْأَلُني:
"أَيْنَ أَنْتَ؟"
ولَكِنَّني لا أُجِيبُ...
ضِيائي عَميقٌ
وَعَيْناكِ صَارِيَتي
فِي الضَّبابِ الكَثيفْ...

لَيْسَ هذا الزَّمانُ
سِوى قِشْرةٍ،
وَالمكانُ بَقَايَا الضَّبَابِ الذي لَفَّنَا
في الغِيَابِ...
أَنا... مَنْ أَنا؟
يَغزِلُ الوَقْتُ ذَاتِيَ أُنشودةً
لا تَموتُ،
يُسَاكِنُنِي الأَبَدُ المتَحَرِّكُ
دَاخِلَ حَرْفِي
فَأَخْرُجُ مِنْكِ... إِلَيْكِ...
وَأَحْمِلُ دُنْيَايَ فِيكِ،
وَأَسْأَلُنِي: "مَنْ أَنَا؟"
أَقْرَأُ الذَّاتَ حَرْفًا فَحَرْفًا —
وَأَحْرُفُ ذاتِي تَظَلُّ جَديدَهْ،
وَتَبقى سَمَاها سَماءً بَعيدَهْ،

وَأَبْقَى بعَيْنَيْكِ رَهْجًا لَطيفْ
وَوَحْيًا وَحيدًا يَصُوغُ القَصِيدَهْ
وَخَلْقًا تَسامَى
كَسَمْتٍ مُنِيفْ...

******

مَنْ أَكونُ، إِذًا،
وَكِيانِي صَنِيعُكِ فِي الخَاطِرِ البِكْرِ؟
مَاذَا أُجِيبُ
وَفِي جَسَدِي كَائنٌ مِنْ ضِيَاءْ؟
أَتَنَاسَلُ فِيَّ وَفِيكِ
وَحوْلِي عَنَاوِينُنا
وَذُهُولُ الزَّمَانِ الذي غَابَ...
أَخْرُجُ مِنّي إِلَيْكِ
وَأَنْثُرُنا في امْتِدَادِ السَّمَاءْ.
لَيْسَ فِينا سِوانا،
فَيَا كَوْنُ غِبْ،

وَٱنْتَحِرْ، يا زَمَانُ،
وشُدَّ الأَمَاني إِلَى قلْبِنا المتَفَتِّحِ:
كُلُّ المدَى غَائِبٌ،
وَالكَلامُ ٱنْفِلاتُ هَبَاءْ...
كُلُّ شَيْءٍ يَغِيبُ... سِوَانا
وَأَحْلامُنا لُغَةٌ سَامِيَهْ.
كُلُّ شَيْءٍ يَغِيبُ... ونَبْقَى
وَنَقْرَأُ فِي ذَاتِنَا اللغَةَ الثَانِيَهْ:
خَالِقَانِ
تَلاقَتْ بِنارَيْهِما
كُلُّ أَزْمِنَةِ الخَلْقِ
وَٱنسَكَبَتْ فِي حُروفِ القَصيدَةِ بِكْرًا
تَشَهَّتْ لأَوَّلِ مَرَّهْ
وَطَارَتْ إِلى الملَكوتِ
مِنَ الأَسْرِ حُرَّهْ...

هوَ الخَلْقُ يَبْدَأُ مِنّا

كَطِفْلٍ تَراكَضَ بَيْنَ الفَواصِلِ والمسْتَحيلِ

وَحِيدًا،

يَلْبُسُ الحِبْرَ،

تَسْري القَصيدَةُ فِيهِ دِماءْ...

هُو الخَلْقُ يَبْدَأُ مِنّا

وَمِنْ شَفَتَيْنا يَهُلُّ السَناءْ.

- ٣ -

لَمْ يَكُنْ بَيْنَ ذاتِي وجِلْدِي
سِوَى عَالَمٍ مِنْ أَثِيرٍ
وَصَمْتٍ مُضِيءٍ
تسَلَّلَ فِي جَنَبَاتِ الكَلامْ...
لَمْ يَكُنْ بَيْنَ ذَاتِي وَعَيْنَيْكِ...
غَيْري،
وَكُلُّ اليَنابِيعِ تَدْفقُ
مِنْ شَعْرِكِ المتَدَلّي،
وكُلُّ النجومِ تَمُرُّ بِروحِكِ وَالِهَةً
كَي تَنامْ.

يَجْلِسُ الزَمَنُ المتَكَوِّمُ فِي صَرْحِهِ
هَرِمًا،
وَيُحَدِّقُ بِالصُبْحِ:
لَمْ يَسْتَظِلَّ صَباحٌ بِهِ —
لا صَبَاحَ يَمُرُّ،
وَلا زَمَنٌ...
لا مَسَاءَ...
وكُلُّ الزَمانِ نَسِيمٌ
تَضَوَّعَ مِنْ وَجْنَتَيْكِ.
تَجِيءُ اللُغاتُ
وتَأْوِي إِلَى زَهْوِ عَيْنَيْكِ —
عَينَاكِ هَذِي القَصِيدَةُ
تَسْكُبُ فِيَّ المُنَى...
كَالمدامْ...
وعَيْناكِ لَوْنُ البِشَارَةِ

وَهْيَ تَهُلُّ عَلَى الأَنْبِياءِ
وَلَحْنُ الملائِكِ
يَفْتَحُ حُلْمَ العُلى للأَنامْ...
فَلَكٌ مِنْ حُرُوفِ الغِيَابِ أَمَامي،
وَكُلُّ دَمِي فِي عُرُوقِكِ يَسْرِي،
وَكُلُّ دِمَاكِ أَثِيرٌ... أَثِيرْ...
ومَعًا نَحْنُ
يَنْهَلُ مِنّا الوُجُودُ تَقَاسِيمَهُ
وَيُصَوِّرُنا الأَلَقُ المتَجَدِّدُ فِي أَرْضِهِ
نَسَمًا وَأَرِيجًا وَثِيرْ...
وَمَعًا نَحْنُ نَسْكُبُ فِي الشِّعْرِ
أُنْشُودَةَ الخَلْقِ،
نَجْبُلُ فِينَا البِدَاياتِ
والمُنْتَهى
وَالمصِيرْ...

- ٤ -

مَنْ أَكُونُ وَقَدْ غِبْتُ فِيكِ؟
وَمَاذا يُساوِي الزَّمَانُ...
جَمِيعُ الزَّمَانِ...
إِذَا كَانَ خارِجَ عَيْنَيْكِ.
مَاذا يُساوي المكانْ؟
وَمَاذا إِذا ٱنْتَحَرَتْ قُوَّةُ الفِعْلِ
فِي الحُلْمِ،
وَانْسَكَبَ الحُلْمُ فِي مَلَكُوتِ الكِيَانْ؟
مَنْ أَكُونُ وَقَدْ غِبْتُ فِيكِ؟
أَهَمْسَةَ شِعْرٍ

تُلَخِّصُ كُلَّ التَواريخِ،
أَقوَى مِنَ الموتِ،
أَكْبَرُ مِنْ جَبَرُوتِ الزَّمَانْ؟
أَوَحْيًا تَجَنَّحَ بِالنارِ
فَانشَقَّ فِيهِ الوُجودُ وُجودَيْنِ:
نَحْنُ... وَنَحْنُ...!
فلا شَيْءَ خارِجَنا...
لا حَيَاةَ ولا مَوْتَ،
لا مُسْتَحِيلَ ولا مُمْكِنٌ...
نَحْنُ كُلُّ التَّصَوُّرِ
إِذْ يَتَكَوَّنُ فِي الخاطِرِ البِكْرِ،
لَيْسَ يَحُدُّ مَدانَا مَدًى،
لا يُحيطُ بِنا خَطَرٌ... أَوْ أَمَانْ....
نَحْنُ هَذا المَلاءُ الذي يَجْعَلُ الذاتَ ذَاتًا
وَيَجْعَلُنَا فِي ٱرْتِقَاءِ الأُلُوهَةِ

نُورَيْنِ...
مِنْ لَهَبٍ يَتَلَظّى
فَلَيْسَ تُقَسِّمُهُ قُدْرَةٌ.
نَحْنُ نسْغُ الحَيَاةِ
يُطَهِّرُ رُوحَ الوُجُودِ،
وَيَسْكُبُ طَعْمَ الخُلُودِ،
وَيَحْتَرِفُ العِشْقَ فِي كُلِّ آنْ!

- ٥ -

هَكَذا ٱنْكَسَرَ الموْتُ بِالعِشْقِ
وَٱنْهَزَمَ الواقِعُ المتَفَتِّحُ فِي تَيْهِهِ،
وَٱعْتَلَى الشِّعْرُ عَرْشَ الأَلَقْ...
هَكَذا شَرَّعَ النُّورُ راياتِهِ،
وَٱنبَثَقْ.
هَكَذا نَحْنُ...
رَائِحَةٌ مِنْ أَرِيجِ الضِّياءِ
تَمُرُّ عَلى الكُلِّ مُفْرَدَةً،
وَتُعِيدُ الذُّهُولَ إِلَى الخَلْقِ
فَالخَلْقُ حُلْمٌ

وَصَانِعُهُ تَوْأَمَانِ بِذاتٍ
تَوَحَّدَ فِيهَا الكِيَانُ
لِيَكْتَمِلَ الخَلْقُ فِي مَا خَلَقْ.
هَكَذا نَحْنُ...
أُنْشودَةٌ فِي ضَمِيرِ الوُجودِ
تَقُدُّ الزَّمَانَ ٱنْبِثَاقَيْنِ
يَرْتَفِعَانِ إِلى الملَكُوتِ
كَمِثْلِ الضَّبَابِ الذي يَتَعَالَى
مِنَ الرَّحِمِ.
ٱنْبَثَقَ الوَجْدُ
مِنْ أَلَقِ المستَحيلِ الذي صَارَ
حُلْمًا عَلَى وَاقِعِ الأَرْضِ.
صِرْتِ ٱرْتِقَاءَ الوُجُودِ إِلى سِدْرَةِ المنْتَهَى
وَٱنتَهَى الوَقْتُ فِيكِ...
ٱنْتَهَى الكَوْنُ فِيكِ...

ٱنْتَهَى الخَلْقُ فِيكِ
وَغَابَتْ جَمِيعُ النِسَاءِ...
عَلَى وَجْنَتَيْكِ.
تَسَوَّرْتُ بِالحُلْمِ،
سَلَّمْتُ نَفْسِي إِلى أُفْقِ مِعْرَاجِهِ:
كُلَّمَا ابْتَعَدَتْ عَنْكِ ذَاتي
رَأَيْتُكِ أَوْغَلَ فِيَّ
وَأَعْمَقَ فِي قَلْبِيَ المتَفَتِّحِ.
لا شَيْءَ يَفْصُلُنا،
لا شَيْءَ بَيْنِي وَبَيْنَكِ
غَيْرُ الضِيَاءْ،
وَغَيْرُ ٱنْكِسارِ المسَافَاتِ
فِي لَيْلَكِ الفَرَحِ المتَرَامي...
وَحِينَ يَفوحُ أَريجُ البَهَاءْ
يَسْتَحِيلُ السُّكُونُ غِناءً عَميقًا

وَزَنْبَقَةً
مِنْ بَياضِ الثُّلوجِ التي وَشَّحَتْنا
فَحَلَّ بِنَا مَلَكُوتُ الحُضُورِ
وَغَابَتْ جَمِيعُ الأَحَاسيسِ
حِينَ ٱنْخَطَفْنَا،
فلا حِسَّ يَخدِشُ هَذَا الصَفَاءْ؛
وَأَيْقَنْتُ أَنَّ الوُجُودَ حُضُورٌ بِعَيْنَيْكِ،
أَنَّ الزَمَانَ... جَميعَ الزَمانِ...
ٱنْخِطَافٌ إِلَيْكِ،
وَأَنَّكِ أَنْتِ... جَميعُ النِّساءْ!

- ٦ -

يَنْزِلُ الصُبْحُ مِنْ أُفْقِهِ المُتَعَالي

وَيَحْضِنُني

مِثْلَ طِفْلٍ صَغيرْ...

وَيُواري جَبيني بِبَسْمَتِهِ

حِينَ يَلْفَحُهُ نُورُكِ المتَفَتِّحُ

بَيْنَ دُرُوبِ العَبيرْ.

يَنْزِلُ الصُّبْحُ مِنْكِ إِلَيَّ

وَلا صُبْحَ فِي الكَوْنِ

غَيْرُ ٱلْتِقاءَاتِنا وَٱنْخِطافَاتِنا

فِي مَعاريجِ خَلْقٍ

يُؤَسِّسُ لِلمُسْتَحيلِ.
تَوَارَيْتُ فِيكِ...
تَوَارَيْتُ عَنِّيَ فِيَّ
وَآخَيْتُ هَذا الغِيَابَ الكَبيرْ
وَتَوَزَّعَنا المسْتَحِيلُ رَذاذًا لَطيفًا
وَلَحْنًا يُخَالِفُ كُلَّ الأَغَاني
وَأُنْشودَةً لَمْ تَقُلْهَا الحَنَاجِرُ
تَنْسَابُ عَبْرَ شُقُوقِ الثَّوَاني...
تَوَزَّعَنا المستَحيلُ
صَبَاحًا يَجِيءُ مِنَ المنتَهَى البِكْرِ
أَجْمَلَ مِنْ لُغَةِ الأَرْضِ،
أَكْثَفَ مِنْ وَارِفِ الحُلْمِ خَلْفَ الأَثِيرْ،
وَمَعًا نَتَكاثَرُ عَبْرَ الحَضَارَاتِ،
نَخْتَرِقُ الممْكِنَ المُتَرَهِّلَ،
نَخْتَرِقُ الوَقْتَ

نَحْوَ الذي لا يَكونُ
وَنَنْبُتُ فِي الملَكُوتِ
حُضورًا جَديدًا
يُحاصِرُ آفاقَهُ ألَقٌ وَفُتُونُ –
سَتَصِيرُ الحُروفُ سُكُونًا
وَتَغْدو الأَناشيدُ صَمْتًا رَقيقًا
وَنَكْتُبُ بِالعِشْقِ أُفْقَ القَصِيدَةِ
حَتّى يُسَوِّرَ عَالَمَنا الثَّرَّ
هَذا الجُنونُ.

- ٧ -

رَاحلًا فِي لُهَاثِ الحُبُورِ
إِلَى الحُلُمِ البِكْرِ
أَقْرَأُ هَذَا الوُجُودَ مِنَ السَّمْتِ
حَرْفًا فَحَرْفًا،
وَأَكْتُبُ بِالشِّعْرِ ذَاتِي وَذَاتَكِ
أَغزِلُ مِنْ وَحْيِهِ وِجْهَتِي،
ثُمَّ أَنْظِمُ عِقْدَ القَصِيدَةِ مِثْلَ الضَّبَابْ
وَأَقْرَأُ نَصَّ السَّمَاوَاتِ فِي لُغَتِي...
رَاحِلًا فِي لُهَاثِ الحُبُورِ
إِلَى حُلْمِكِ البِكْرِ

أَكْتَشِفُ العُمْقَ،
حَتّى كَأَنَّ السَّحَابْ
يُوشِّحُ جِسْمَكِ بِالرِقَّةِ المسْتَحِيلَةِ.
كُنْتُ أُراقِبُني فِيكِ
حِينَ يَصِيرُ الغِيَابْ
أَشَدَّ ٱمتِلاءً مِنَ الواقِعِ المُتَهَدِّجِ.
كُنْتُ أَرَاكِ أَثِيرًا
عَلَى سِدْرَةِ الكَوْنِ
يَكْتُبُني وَيُكَلِّمُني...
لا حِجَابْ:
وَاحِدَيْنِ، إذًا، نَحْنُ
في مهْرَجَانِ الكِتَابَةِ بِالعِشْقِ
نَغْرَقُ فِينَا...
وَنَنْظُرُ نَحْوَ الخَلِيقَةِ فِي لَحْظَةِ الكَشْفِ.
هَذَا هُوَ الأَلَقُ المتَفَتِّحُ

دُونَ المسافَاتِ،
دُونَ الأَبَدْ!
كُلُّ شَيْءٍ سِوَانَا بَدَدْ...
كُلُّ شَيْءٍ يَحلُّ بِنا وَاحِدَيْنِ —
تَغِيبُ الحُدُودُ،
يَغِيبُ التَعَدُّدُ،
يَفْنَى العَدَدْ...
كُلُّ شَيْءٍ سِوانَا بَدَدْ
وَضَمِيرُ المدى ذاهِلٌ
فِي غِيَابِ المسَافَةِ بِالعِشْقِ.
لا شَيْءَ غَيرُ التَّوَحُّدِ.
كُلُّ الوُجُودِ يَحلُّ بِنَا وَاحِدَيْنِ أَحَدْ.

يَتَلاشَى الزَّمَنُ المتَصَاعِدُ مِنْ قَلْبِ الكَوْنِ
وَيَنْكَسِرُ التارِيخُ
أَمامَ غِيَابِ الواحِدِ فِي الواحِدِ.
لا شَيءَ...
سِوَى الأَلَقِ المفتُوحِ عَلى بابِ المطْلَقِ.
لا شَيءَ سِوانا
نرقُصُ فِي لهَبِ التَّكْوِينِ
وَيَحْمِلُنا اللهَبُ.
لَهَبٌ... لَهَبٌ... لَهَبٌ... لَهَبُ...
وَجْهُ اللهِ يُحِيطُ بِنَا
وَغِنَاءُ المطلَقِ يَقْتَرِبُ.

لَهَبٌ... لَهَبٌ... لَهَبٌ... لَهَبُ...
أَلعِشْقُ يُشَفِّفُ ذَاتَيْنَا،
وَالوَجْدُ يُغَيِّبُ جِسْمَيْنَا،
وَالفَرَحُ الصّاهِلُ فِي قَلْبَيْنَا
أَبَدٌ يَنْسَابُ ويَصْطَخِبُ.
لا شَيْءَ سِوَى وَجْهَيْنَا
فِي أَبَدِيَّةِ هَذَا العِشْقِ الأَبْيَضِ.
فِرْدَوْسٌ مِنْ رَائِحَةِ الحُلْمِ
وَيَنْبُوعُ شَبابٍ يَدْفُقُ مِنْ جَسَدَيْنَا
وَكِلانَا أَرَجٌ
فِي أَعْلَى الضَّوْءِ المُنْهَلِّ مِنَ السَّمْتِ.
كِلَانَا عَبَقٌ مِنْ لَوْنِ الرُّوحِ
يَئِنُّ عَلَى أُفُقِ الجَنَّةِ.
لا شَيْءَ سِوَانا
وَخُطَانا

كُلُّ هَزِيجِ الفِرْدَوْسِ خُطَانَا
وَالحُلُمُ الأَبْيَضُ يَنْسَكِبُ.
طُرُقٌ تَتَنَاسَلُ فِينَا،
أَبَدٌ يَصْهَلُ فِيهِ العَصَبُ،
وَالخَلْقُ القادِمُ مِنْ جِهَةِ الشِّعْرِ
يُجَدِّدُ مَلْحَمَةَ التَّكْوينِ
وَيَلْتَهِبُ.
لَهَبٌ... لَهَبٌ... لَهَبٌ... لَهَبُ...

******

عَيْنَاكِ قَصيدَةُ وَرْدٍ أَحْمَرْ
حَاصَرَهَا الثَّلْجُ لِيَحْمِيَها،
وَفُؤَادِي مِنْ وَلَهٍ أَشْقَرْ
يَتَنَاثَرُ فِيكِ هَبَاءً أَخْضَرْ،
مَطَرًا مِنْ نُورٍ وَبَهَاءْ
وَحُقولًا مِنْ لَوْنِ الماءْ
وَأَناشِيدَ حُبُورٍ وَضِيَاءْ
وَأَنا فِيكِ رِتَاجٌ لِلآتي
يَدْخُلُ مِنْهُ الآتُونَ إِلَى السِّدْرَةِ،
صَوْتٌ مِنْ عَنْبَرْ...

عَيْناكِ قَصيدَةُ وَرْدٍ أَحْمَرْ
وَأَنا مَعَكِ الشَّغَبُ
نَتَحَرَّكُ فِي الأَرْضِ كإِعْصارٍ نُورانِيٍّ
وَنُهَشِّمُ بَرْدَ الموتِ
وَنَلْتَهِبُ...
لَهَبٌ... لَهَبٌ... لَهَبٌ... لَهَبُ...

نَتَكاثَرُ دَونَ زَمانٍ...
وَمَعًا نَتَوَسَّعُ فِي الحُلْمِ –
يَصيرُ الحُلْمُ بُيوتًا
وَسَماءً مِنْ أَرواحٍ نُورَانِيَّهْ،
وَيَصِيرُ لِباسًا للْعِشْقِ المفْتُوحِ
عَلى آفاقِ الدُنْيَا

يَخْرُجُ مِنْ جِهَةِ السَّمْتِ
إِلَى الفِرْدَوْسِ المفْتُوحِ عَلَى قَلْبَيْنا...
أَبْيَضَ كالثَّلْجِ المنثُورِ بِكائِنِنَا –
ثَلْجٌ مُلْتَهِبٌ خَلْفَ مسَاحاتِ الحِسِّ
وَخَلْفَ الأَرْضِ المَنْسِيَّهْ...
وَمَعًا نَتَوَزَّعُ دَوْرَ الخَلْقِ
وَنَكْتُبُ مَلْحَمَةَ التَكْوِينِ
وَنَنْسَكِبُ
شَلاَّلًا مِنْ نُورٍ
يُحْيِي مَا يُيْبِسُهُ السَّغَبُ،
وَمَعًا نَتَوَحَّدُ فِي كَائِنِنا
بَرْقًا وَشَرَاراتٍ شِعْرِيَّهْ
يَحْمِلُنا العِشْقُ إِلَى أَقْصَى الفِرْدَوْسِ
فلا مَحْظُورَ...
ولا مَحْدُودَ...

ولكِنْ رَقْصٌ لِهَزِيجِ المطْلَقِ
فِي عُرْسِ البَوْحِ المفتُوحِ،
ورَقْصٌ لِضَمِيرِ الشِّعْرِ
عَلَى أَرْضِ النُّورِ البِكْرِ
وَفِي الأَعْمَاقِ المَخْفِيَّهْ...
لا مَحْظُورَ...
وَلا مَسْمُوحَ...
وَكُلُّ ثِمَارِ الجَنَّةِ فِينا
بَوْحٌ أَبَدِيٌّ
وَتواصُلُنَا لُغَةٌ مِنْ نَارٍ تَلْتَهِبُ.
لَهَبُ... لَهَبٌ... لَهَبٌ... لَهَبُ...

******

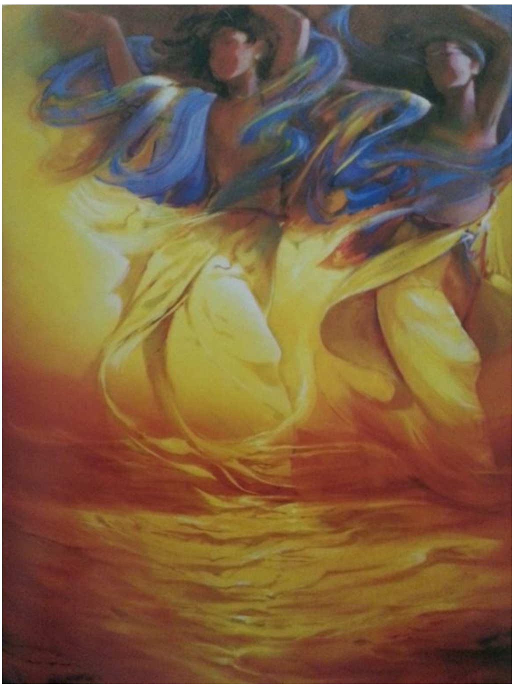
أَلَقٌ يَتَفتَّحُ فِي العِشْقِ
عَلَى إِيقَاعِ الكَوْنِ الناهِضِ مِنّا
وَالتارِيخُ ذُهُولٌ
وَقَصَائِدُ زَهْرِيَّهْ —
هُوَذَا العِشْقُ يَرُدُّ الكَوْنَ فُتُونًا،
حُلُمًا يَتَحَرَّرُ
فِي الآفاقِ النُّورانِيَّهْ.

(١٩/ ٦ – ٦/ ٧/ ٢٠١٢)

ديزيره سقال

المعلقة الخامسة

(أو كتاب التّكوين)



مقدمة

ما اعتدت الكتابةَ إلّا عن نصوصٍ أحببتُها؛ غير أنّ المفارقة بالنسبة إلى الشّعر أنّي، بقدر ما أحبُّ قصائد منه، أخشى الكتابةَ عنها؛ ومردّ ذلك امتناعي عن استدراجِ القصيدة المتألّقة الحارّة إلى منطقة الفكر البارد... وهذه هي حالي مع مطوّلة الشاعر الصديق ديزيره سقّال. وفي الواقع، أحبّذ أن يجاهد القارئ لوضع نفسه في منطقة نفوذ القصيدة، خالِعًا عنه كلّ "اهتمام يوميّ دنيويّ"، ليلتقط إشاراتها، فينتقل إليه "دازاينِها" الشِّعريّ...

ومع كلّ ذلك، فسأقدّم ما ألتقطُه من خلال تساؤلاتٍ وأجوبةٍ اقترابيّة، علمًا بأنّي لن أحصر تقديمي بدراسة أكاديميّة، ولو فعلت لاحتجت إلى عشرات الصفحات، بل سأجعله نافذة لانبثاق قراءاتٍ منهجيّةٍ مغرية جدًّا لها...

والتساؤل الأساسُ هو: كيف استطاعَ الشاعرُ أن يقدّم مطوّلة شعريّةً بهذا الحجم، محافظًا على شعريّتها، وتماسكها، وترابطها، وشَحْنِها الرؤيويّ؟

أدّعي أنّ للقصيدة نَغَمًا أساسًا، يتمثّل بتمزّقِ الروح من انشطارِ الذات، وتبدُّدِها في كون مكانيّ/ زمانيّ فانٍ ومحدود، اشتهاءً لِتَوَحّدها "الوَحْدانيّ"، ما كشف عن تحقّق الاشتهاءات الرؤيويّةِ، في كونِ الديمومة الأثيريّ، حيث يلتمّ مثلّث الشاعرِ الأقنوميّ في وحدانيّته: ذاته

الذكوريّة، وذاته الطيفيّة الأنثويّة/ ذاتِ الحبيبة، وقصيدته النورانيّة المتألّقة، بعد ولوجه ألقَ النور، وبلوغِهِ إنسانَهُ الأعلى، حيث راح يتواتر...

والشاعر يُصْدِر قصيدته عن حلم مستحيلٍ بالخروج على محدوديّته ونقصانِه الناتجين عَنِ انشطارِ ذاتِه، إلى كون الديمومة الفردوسيّ، بعد التئام ذاته الذكوريّة مع ذاته الأنثويّة، وسيطُه إلى ذلك العشقُ المصفّى؛ وقد انتظم كلُّ ذلك في رؤيا نسجتها معاناته وخبراته وثقافته؛ فهو مسكون بآباء طيفيّين، سدّوا فيه نقصانه، وأسعفوه على تحقيق مأموله وامتلائه الطيفيّ، ومنهم: أفلاطون في الصعود الأمثل، وفيثاغورس في الواحد المتوحّد وامتلاء الكون بأنغامه، وأبو حيان التوحيديّ فاصلًا بين عالم التكثّر وعالم الوحدة، ونيتشه في العَوْدِ الأبديّ للإنسان

الأعلى، وهولدرلين في احتمالِ الحياة عبر السكنِ بطريقة شعريّةٍ، وهيدغر في اعتبارِ الشعرِ إنشاءً للاشتياقات الإنسانيّة العليا، وللذات التاريخيّةِ، والتوراةِ في خلقِ الأنثى من ضِلعِ الذَّكَر، والإنجيلِ في انبثاق الإلهيّ المثلّث الأقنوميّ نورًا من نور، والقرآن في سورة النور، حيث اللهُ نورُ السماواتِ والأرض مَثَلُ نورِهِ... "نورٌ على نور" ﴿النور/ ٢٥﴾، فضلًا عن مختلف مذاهب الحلول والارتقاء... والمطوّلة متحاورة مع أولئك مجتمعين...

وما يدهشك في هذه المطوّلة تضافر مستوياتها، وتحوّلاتها، والتحام الشعريّة مع السرديّة فيها، وبناؤها المتدرّج الدراميّ من صوتين خفيّين فيه: ذكوريّ وأنثويّ، وارتقاؤها حتّى اكتمال التوحّد الديموميّ الاحتفاليّ...

أوّلا، <u>التحوّلات</u>: وهي كثيرة ومختلفة، أبرزها: من عذابات الانشطار، إلى فرح الالتقاء والتوحّد؛ ومن الانحدار ومحدوديّة المدى والعمر والمكانيّ/ الزمانيّ، إلى الارتقاء في المعارج النورانيّة نحو اللاعمر، واللانهائيّة، والآماد، واللامكانيِّ/ اللازمانيِّ، والكونِ الأثيريّ، والألقِ الفردوسيِّ الخالد؛ ومن احتمال الانفصال بوساطة الشعر، إلى الامتزاج بكون شعريّ مصفًّى، تجسيدًا لدمج الذاتين؛ ومن الفقدان إلى الامتلاء؛ ومن التبدّد إلى الواحد الأصل؛ ومن الأرض المعتمة، إلى الأرض السماويّة النورانيّة، وعالِمِ الألق والوهج؛ ومن نسل الموت إلى الخلود... ووسائطُهُ عديدة: الرفض، والتجاوز، وقراره، وشعره المتألّق، وعشقه النورانيّ، وعينا أنثاه بعد مزجه ذاته الأنثوية بذاتها... أمّا إواليات قراءتنا فتستند إلى القراءة عن طريق البناء، وإلى تشغيل تقنيّة الإبدالات؛ واللافت أنها، وإن قامت على

التشابه، فإنّها حملت زياداتٍ وتحوّلاتٍ، على غرار: "التوحّد – الالتئامات – الكيان الواحد – ذاتان في ذات – ضوءان من سَمْتِ الوجود – روحان في روح – أنا وأنت شرارة – عمران في عمر – عمران في اللاعمر – عمران يسكنان لون الروح وعالم الرفض – عمران أصفى من أثير – ذاتان في ذات وعمر جامح أقوى من العمر المكبّل بالحديد – الذات ليلٌ أبيض أصفى من السناء.../ أوسعُ من صلاة/ تبرقُ فيها الروح – عُمْرَانِ... أصفى من سنا التكوين... في فجرِ التوحّد – حلمان أخضران – أنا وأنت خطرة نابضة في رئة الوجود – عمرانِ في عمر ولا حدّ لنا... لا شيء بيننا... لا شيء يوقف ارتقاءنا إلى محجة الخلود – أنا وأنت خطرة من فرح الفردوس... ونفس القدير – نور على نور – ألَقٌ على ألَق – أنا وأنت قصّة من فرح... من حلم... من عرسِ حلمِنا المديد...

أروع من غرابة التكوين... "أقوى من المكان - أنا وأنت شعلة... وطن للألق... لغة جديدة للشعر/ للمعارج المضيئة للنور... حروفها زوبعة تجدّد الإنسان/ تفتح باب الرفض والخطيئة... تنزل من فوق إلى أرض البشر لنبدأ القصيدة - روح وروح في كيان واحد... أرّخ للعشق وفاض فيه الشعر". والمتأمّل في تلك الإبدالات يلحظ بسهولة التدرّجَ، والتحوّلاتِ الارتقائيةَ في المطوّلة...

ثانيا، الإيقاعات: والمطوّلة نموذج لتوظيفات إيقاعيّة لا يبلغها إلاّ عليم وخبير؛ ولا غرو في ذلك، فالشاعر أستاذ جامعي أشرف وناقش عشرات الرسائل والأطاريح، ولاسيّما ما كان موضوعها شعريًّا...

ولقد استخدم الشاعر في أناشيد مطوّلته التسعة بحرين: الكامل (متفاعلن) والرجز (مستفعلن)، واللافت هنا أنّ

تفعيلة الرجز هي الجواز الوحيد لتفعيلة الكامل، وأنّ للرجز ثلاثة جوازات كلّها غير مقبولة في الكامل، وأنّ لكِلا البحرين تفعيلاتٌ مختلفة في تقفيتهما. ولقد استهلّ الشاعر مطوّلته بتفعيلة الكامل، لما يتحمّل من الشدّة والكمال والقرار؛ إذ حمّله المرفوض والمنشود، أي مأموله، بنبرةِ القرار والرؤيةِ الواثقة، وقد خصّصه الشاعر لصوت الذات الذكوريّة فيه المتشهّية بلوغَ ذاتها الأنثويّة الطيفيّة، متيقّنا من تحقيق التحام ذاتيه، وإنْ تجسّدت ذاته الأنثوية في ذات أنثى ولج إليها عبر عينيها. وما يدهشنا هنا أنّ الرجز، منبثقًا من الكامل، خصّصه الشاعر لذاته الأنثويّة، أو صوتِ أنثاه منبعثًا منه؛ وكم بدا الشاعر بارعًا حينما انتقل من الكامل إلى الرجز، بشكل تناوبيّ، يرافق تطوّر الرؤيا، ولاسيّما عندما جعل في تقفية الكامل تفعيلة الخبب ("فَعِلُنْ": الألق- الشفق- يأتلق- تصطفق-

تنبثق) لتوقيع الطرب العالي المكتمل بزهو التحقّق الالتحاميّ والوحدانيّة، فيما جعل في تقفية الرجز جواز الخبب ("فَعْلُنْ": أغنيّهْ- جنّيّهْ- سماويّهْ- حوريّهْ- علويّهْ- زهريّهْ) وهو المسمّى بتواتره "دقّ الناقوس"، لما يحمل من أنغام الحنان والغناء الشجيّ صادرًا من الأعماق...

والأكثر إدهاشا، أنّ انبثاق "الرجز" من الأصل "الكامل" – وهو فيه تابعه، ليصبح، لاحقًا، أصلًا في ذاته – شبيه بانبثاق الأنثى من ضلع الرجل، وهذا ما يسوّغ اختيار التفعيلتين... ولكي يكتملَ التناصّ الخَلْقيّ المتألّه، جعل الشاعر التئام الذاتين: الذكوريّة والأنثويّة فيه لا يكتمل ألقُه الإشراقيّ الإشعاعيّ وتجسّدُه بسوى روح الشعر النقيّ الصافي المتألّه... وبالتحام أقنومه المثلّث،

حقّق الشاعر ديمومته، وأنشأ عالمه الفردوسيّ العِشْقِيَّ العاليَ...

وتماسُك المطوّلة ظاهر من خلال تواتر مفردات أساسيّة فيها كالمدى، والنور، والتوحّد، والارتقاء، والروح، والعينين، والعشق؛ فضلًا عن حقول معجميّة واسعة لكلّ منها، وتضافرها في شبكة معجميّة كبرى، ومن خلال الإبدالات العديدة النامية... أمّا ترابط المطوّلة فجليّ من خلال بنيتها الدلاليّة الكليّة، وإمكان تحويلها كلّها إلى متتالية حجاجيّة كبرى واحدة، واختزاليّتها عبر مخطّط عامليّ مكتمل العناصر، لن أفصّلها، تفاديًا للإطالة...

وبكوني، على ما قلت، لا أنجز مقاربة أكاديميّة، بل أقدّم مطوّلة الشاعر وحسب، مفسحًا المجال لقراءات مختلفة، لم أتناول هندسة القصيدة الإيقاعيّة بوجوهها

المختلفة، من متوازنات ومتوازيات، وبؤرة وأمواج، وتنسيقات صوتيّة، كما لم أتطرّق إلى صورها وتضميناتها الغنيّة ورموزها؛ فكلّ ذلك، على ما أعتقد، سيكون موضوعًا لدراسات أكاديميّة عديدة...

د. نبيل أيوب

- ١ -

مُتَكسِّرًا في ذاتِيَ البيضَاءِ
أَرْحَلُ في دَمي،
وَيَمُضُّنِي أَلَمُ التَوَحُّدِ في انكِشافاتي،
ويَخْذُلُني فَمي...

كَيفَ ٱنْبَثَقْتُ لِذاتِيَ الأُخرى
فشَلَّأَني الزَّمانُ،
وتَحَوَّلَتْ ذاتي إِلى سُكْنى
يُجَرِّحُها ٱشتِهاءُ المستحيلِ،

وذاتِيَ الأُخرى يُحاصِرُها المكانُ؟!
كيفَ ٱلْتَأَمْتُ
فصارعَ الزمنُ الْتِئَاماتي،
وَأَرَّخَ للجُحودِ تَواصُلًا
بَيْني وبَيْني
فاسْتَمَدَّ الدفءَ مِنْ ذاتي الأَمانُ؟
زمنٌ بلا وَجهٍ...
يُحَفِّرُني بسِكّينِ المسافَةِ،
يَقْطَعُ الأَوْصالَ في ذاتي،
وَلَكِنّي
أُحَصِّنُ ذاتيَ الأُخرى بذاتي،
أَحْتمي بالشِّعْرِ،
أَنصُبُهُ سِياجًا مِنْ أَثيرٍ...
ثُمَّ يَبتدِئُ الرِّهانُ:
ذاتي وذاتُكِ واحِدانِ

عَلَى ٱمتِدادِ الواقعِ المزْروعِ بالأَفْخاخِ،
يَحْتَضِنانِ فَوْقَ الوَقْتِ
أَحْلامَ التَلاقِي
حَيْثُ يبتدئُ الزَّمانُ...

- ٢ -

مُتَكَسِّرًا في ذاتيَ البيضاءِ

أَرْحَلُ في دَمي،

وَالواقِعُ المخْتالُ في الفُقْدانِ

يَشْطُرُني...

كأَنّي لم أُبارِحْ وَحْدَتي

وكَأَنَّني لم أحلُمِ...!

لكِنَّ وَجهَكِ وَهْوَ يَسْكُنُني

يُواجِهُ لَعْنَةَ الفُقْدانِ،

يَحْمِلُني إليهِ...

فَأَطْرَحُ المحدودَ مِنْ ذاتِي،

وأَرْبُطُها بِفِرْدَوْسِ الصَّفاءِ
وَنُورِهِ المتَكَوِّمِ
وَأَظَلُّ أَنمو في مَجالِكِ
حَيْثُ نَفتَرِشُ التَكامُلَ
في الكِيانِ —
مَعًا كِيانٌ واحِدٌ
في مُسْتَحيلِ الظَّنِّ
يَكتشِفُ المدى خَلْفَ الزَّمانِ
وَخَلفَ حَدِّ الواقعِ المتَلَعْثِمِ...
وَمَعًا نمرُّ على حدودِ العالمِ
ٱلمسكونِ بالنُّقصانِ،
نَجْعَلُهُ ٱكتِمالًا في مَعاريجِ الرُّؤَى...
وَمَعًا نَمُرُّ عَلى حُدودِ الوَعْيِ
نَمْسَحُهُ بِزَهْوِ شَبابِنا المجنونِ،
نَكْسِرُهُ بأحلامِ البَريقِ النائمِ.

كَمْ مَسَّنا خَدَرُ الجنونِ
فرَدَّنا قَبَسًا،
وَأَزْكَى لَوْنَ وَحْدَتِنا
فَطارَ الأبيضُ النّارِيُّ
عَبْرَ فَضَائِنا نَحْنُ...
ٱنْتَظَرْنا أَنْ تَكُونَ وِلادَةٌ خَلْفَ الزَّمانِ
وَمَرَّتِ السَّنَواتُ...
أَثْقَلَ مِنْ سُكُونِ الموْتِ:
خَمْسًا... ثمَّ عشرًا...
واثنتينِ وأربعينَ...
وَكَانَ أَنْ كَشَفَ الزَّمانُ خِباءَهُ السَّتّارَ
واحترقَ التَباعُدُ في رَذاذِ الثَّلْجِ،
وَٱنْبَثَقَتْ بِنَا الذاتانِ
مِنْ أَلَقٍ
وَمِنْ عِشْقٍ

تَفَتَّحَ فِي السديمِ الهائمِ...
كَشْفٌ... وَتَيْهٌ أَبيضٌ
يَتَمَدّدانِ عَلى المدى،
والقلبُ قَلْبانِ: ٱشْتِعالٌ
فِي هُدُوءٍ سَاجِمِ
يَنْسَابُ كالضوءِ الرَّقيقِ
عَلَى ذُهولِ الحاضِرَينِ —
أَنَا وَأَنْتِ...
وَكُلُّ شَيْءٌ غَيْرُنا عَدَمٌ.
وَتُولَدُ مِنْ تَوَحُّدِنا القصيدةُ
سِيرةً بَيْضاءَ
تَخْتَصِرُ التَّوَارِيخَ التي حَفِظَتْ
تُراثَ العِشْقِ
أَوْ
وَلَجَتْ قلوبَ العَاشِقِينْ.

وَأَنا وَأَنْتِ قَصيدةُ التَّكْوِينِ
حِينَ يَصيرُ نورًا في الوُجُودِ
مُجَنّحًا بِأَريجِ قَلْبَينا
وَأَقوى مِنْ فِخاخِ الموتِ
في طُرُقِ السِّنينْ.
كَيْفَ ٱخترَقْنا حَاجزَ الوَقْتِ الثَّقيلِ
وَشَدَّنا التَّكْوينُ في لَهَفٍ
يُحاصِرُ ما يَكونْ...؟!
وَتَواتَرَتْ في الواقِعِ المذْهولِ
أحلامُ التَّجاوُزِ —
كلُّ حلمٍ باتَ فِرْدَوْسًا مِنَ الأَنْوارِ
يَخْفُقُ في فُتونٍ...
في فُتونْ...
ذاتانِ مِنْ ضَوْءٍ
تَهاوى فِيهِما الوَقْتُ العَتيقُ

وَأَثْمَرَ العِشْقُ ٱمتِدادًا
للشُروقِ عَلَى المدى
وَتَفَتُّحًا للزَّهوِ
في عُرْسِ الجُفونْ.

******

ذَاتَانِ فِي ذَاتٍ،
وَنَجْمَةٌ يَتِيمَةٌ تُزَيِّنُ المدارْ،
تَنْسَابُ مِنْ عِشْقٍ
وَمِنْ أَلَقْ
لِيُزْهِرَ الوُجودُ فِي القَرارْ
وَيُشْرِقَ النّورُ بروحِها
مَتى ٱنبَثَقْ...

ذَاتَانِ فِي ذَاتٍ،
وَوَجْهِيَ الجَديدُ

أَصْفَى مِنَ البَخُورْ،
عَينَاكِ فِيهِ عَالَمٌ شَرِيدُ
وَالسِّحْرُ وَعْدٌ بِالنُّشورْ...

ذَاتَانِ فِي ذَاتٍ...
فَكُلَّما نَظَرْتُ
يَنْكَسِرُ المكَانُ وَالزَمَنْ
وَتَبْدَأُ ألأَشْيَاءُ إِنْ أَشَرْتُ،
وَيُمْسَحُ الشَّجَنْ...

- ٣ -

أَلضَّوءُ يَجْمَعُ
مِنْ ضُروبِ الزَّهْرِ ألوانًا
ويَرحَلُ في انخِطافاتٍ دَفِينَهْ،
وَأَنا وَأَنْتِ رَهافَةُ التاريخِ
حِينَ تَصيرُ خالِيَةً منَ الأعْمارِ،
مُتْرَعَةً بأحْلامِ الرُّؤَى
ورَحابَةِ الخَلْقِ الثَّمينَهْ —
ضَوْءانِ مِنْ سَمْتِ الوجودِ
تَلاقَيا بَعْدَ ٱفْتِراقٍ فاجِعٍ
فتَقاطَعَتْ في الوَجْدِ آفاقُ الحُبورِ،

تَوَشَّحَ الزَّمَنُ المسَجّى
بامتِدادِ اللانِهايةِ:
كُلُّ عُمْرٍ
صارَ أَلوانًا مِنَ الفرَحِ الدَفيقِ،
كُلُّ ثانيةٍ تُبَرْعِمُ في طَريقي
وأَنا رِسالَتُكِ التي ٱخْتَصَرَتْ بأَحْرفِها
ٱمتِدادَ اللانِهايةِ
وَٱحتِراقَ الوَقْتِ
في أُفُقِ الخُلودِ...
أَنا ٱنبِثاقُكِ في رُبوعِ اللازَمانِ
وَقَدْ تَفَتَّحَ في الحَريقِ
وَأَنا وَأَنتِ عَلَى سُفوحِ الخَلْقِ
حَرْفٌ رائِعٌ
وَلَدَ الحُروفَ جَميعَها،
وَتَواتَرَتْ فِيهِ القَصائِدُ

مِثْلَ شَلاّلٍ مِنَ الأَلْوانِ
تَخْتَصِرُ الزَّمانَ عَلَى بَريقي.
كلُّ الحُدودِ
تَجَمَّعَتْ في نُقْطَةٍ أَزَلِيّةٍ شَقْراءَ
أَصْفى مِنْ مِيَاهِ الكَوْثَرِ الدَّفّاقِ
عَبْرَ حُدودِ ذاتَينا
وَمَدِّ اللانهايَةِ.
كُلُّ ما آخى حُدودَ الخَلْقِ
يَخرجُ مِنْ تآلُفِنا الرَّقيقِ...
ذاتانِ في ذاتٍ،
وأَرْضٌ مِنْ أَثيرٍ مُشْبَعٍ بالوَهْجِ
يَسْكُبُها ذُهُولُ اللَحْظَةِ الذَهَبِيِّ.
أنتِ حَرارةُ الرُّؤْيا
تَفيضُ عَلَى المدى
وأنا وَميضُ الآنِ

حِينَ يُجَمِّعُ الآبادَ في أَعْماقِهِ
وَيُشَكِّلُ الخُلْدَ المجَمَّعَ في العُروقِ.
ذاتانِ في ذاتٍ
وجَنّاتٌ مِنَ الشِّعْرِ المصَفّى
عَبْرَ مِعْراجِ البُروقِ...
قُرآنُ أحلامٍ
وإنجيلٌ منَ الصَّلَواتِ،
أوْ
وَحْيٌ
تَنَزَّلَ في حروفِ الشِّعرِ
مُفْتَتِحًا تَباشيرَ الشُّروقِ...

******

وَحْيٌ يُضِيءُ فِي ٱلْتِئَامِنا،
وَفِي ٱلتِئَامِنا يَنْعَجِنُ الوُجودُ...
وَالعُمْرُ مُشْرِقٌ عَلى رُبُوعِنا
كَأَنَّهُ الخُلُودُ...

وَحْيٌ وَنورٌ أَبْيَضٌ
تَغْتَسِلُ الذَاتَانِ فِيهِ،
تَفْتَحَانِ أُفُقَ التَجَلّي،
وَتَحْمِلانِ لَذَّةَ الأَحْلامْ
فِي عَالَمٍ يَأْلَقُ إِذْ يَنامْ،

وَلَذَّةَ التَمَلّي...
وَعِنْدَمَا يَنْدَفِقُ الحُضُورْ
وَتَبْرُقُ الأَشْيَاءُ فِي الظُّهُورْ
يَرْكَعُ فِينَا العَالَمُ المسْحُورْ
كَأَنَّهُ يُصَلّي...

- ٤ -

يا ذاتيَ البَيْضاءَ،
أَيُّ دَمٍ تَدَفَّقَ فيَّ
حينَ خرَجْتِ من وَجَعِ الغِيابِ؟!
أَيُّ الملائِكِ رَنَّمَتْ في مُهجَتي
حينَ ٱنْسَحَبْتِ إلَيَّ
حاملةً ذُهولَ الخَلْقِ
مُفْترًّا عَلى شفَتيكِ
مِنْ أَلَقٍ عُجَابِ...؟
ذاتانِ مِنْ تَرْنِيمةِ التَّكْوينِ
تَأْتَلِقانِ في عَصَبِ التَّجَلّي...

ذَاتانِ مِنْ نارٍ وَنورٍ
يَغْرفُ الوَمَضاتِ مِنْ غَورَيهِما
عَبَقُ التَّمَلّي...
ذاتانِ أصْفى مِنْ صَفاءِ الضَّوْءِ
تأْتلِقانِ في هَرْجِ المدى
بَعْدَ ٱثنَتَينِ وأربعينَ مِنَ الضَّياعِ؛
كأَنّما الزَّمَنُ الذي ٱنْصَرَمَ
ٱشتِعالٌ في التَّخَلّي،
وَاللَحْظَةُ البَلْهاءُ دَهْرٌ
مِنْ ظَلامٍ قَبْلَ أَنْ
كَشَفَ الصَّباحُ بِوَجْهِكِ الشَّمْسِيِّ
عَنْ فرَحٍ مُهِلِّ
وَتَوالَدَ العُمْرُ الجديدُ مَنائِرًا
في لانِهاياتِ التَّوَحُّدِ...
كُلَّما نَظَرَتْ إِلى عَينَيكِ عَيني

وَلَّدَتْني نَظرَةٌ مُشْتاقةٌ
وَتَوالَدَ الفَرَحُ الذي ضمَّ السَّماءَ إِلَيْهِ
فَانكَسَرَتْ تَقاطِيعُ المسافَةِ
وٱتْرَقْنا فُسْحَةَ الأَبَدِ المطِلِّ...
يَا مَنْ تُعَرِّشُ في كِيانِكِ
كُلُّ أحلامِ الصَّلاةِ،
وَيَرْتَمي في شَعْرِكِ المنداحِ
خَتْمُ اللهِ،
في شَفَتَيكِ رَجْعُ البَدْءِ وَالتَكْوينِ،
مَا زالَ الوُجودُ عَلى كِيانِكِ
مَلْعَبًا للمُطلَقِ المفتوحِ
في أَسْرارِ وَحْدَتِنا،
وَمَا زَالَتْ عُيونُ السِّرِّ
في دَمِنا تُصَلّي... —
دَمُنا ثِمارُ الأرضِ

فِي عُرسِ السَّماءْ،
وَالناسُ حَوْلَ لِقائِنا
وَهْمٌ،
وَأَشْكَالُ هَباءْ...

******

أَلأَرْضُ حُلْمٌ
كُلَّما تَوَشَّحَتْ بِنا
عَيْنُ الوُجودْ...
وَمِنْ لِقائِنَا المضِيءْ
يَنبَثِقُ المكَانُ مُزْهِرًا
وَيَفْقُدُ الحدُودْ،
وَتَكْشِفُ الأَشْيَاءُ عَنْ
عَالَمِها الخَبِيءْ...

أَلناسُ وَهْمٌ،

وَالوُجُودُ لُغَةٌ جَدِيدَهْ
يَقْرَأُهَا الآتُونَ مِنْ عَلُ،
وَيَنْسُجُونَ مِنْ حُرُوفِها قَصِيدَهْ
بِوَحْيِها تَشْتَعِلُ...

وَنَحْنُ فِي ٱنخطافِنَا الغَرِيرِ
سِرّانِ فِي خَاطِرَةِ السِّنينْ
يُنَاجِيَانِ فِي أُرجوحةِ الحُبُورِ
قَصيدَةَ التَّكْوينْ...

- ٥ -

أَلْتَمٌّ في عَيْنَيْكِ

أصْفى مِنْ رَذاذِ النُّورِ —

عَيْنَاكِ ٱنْبلاجُ السِّرِّ

في وَحْيِ القَصيدَةِ والكِيانِ...

عَيْناكِ فِردَوسي

وَسِدْرةُ مُنتَهايَ

إذا خرَجْتُ مِنَ الزَّمانِ...

عَيناكِ أَلْفُ قَصيدةٍ

ذابَتْ بِلَحْظٍ واحِدٍ

حَرْفًا يشِعُّ بِهِ تُراثُ الأنبياءِ...

كَأَنَّني حِينَ ٱنْبَعَثْتُ إِلَيْهِما
زَمَنَ البَياضِ المستَحيلِ
تَجَسَّدَتْ فِيَّ الأماني،
وٱرتَقَيْتُ
مِنَ الثَّرى المحْصُورِ بالأَشْياءِ
نَحوَ رَحابةِ الألَقِ المديدِ عَلَى السَّماءِ...
هُنا تَماسَكَتِ الغَرابةُ
وَهْيَ ترْحَلُ في القَصيدةِ،
وَٱشْتَعَلْتُ بعِشْقِيَ العُلَوِيِّ
أنْسى مَا عَراني...!
كلُّ ٱنبِثاقٍ، بَعْدُ،
يَخرجُ مِنْهُما،
كلُّ ٱصْطِفافاتِ المدى
في لُجَّةِ الفرَحِ الوَسِيعِ...
أنا وَأَنْتِ...

وَشَهْقَةُ الحُلُمِ الطويلِ
إذا تَغلغَلَ في الثَّواني
رُوحانِ في رُوحٍ،
وَأَرْضٌ لا حُدودَ لِأُفْقِهَا،
وجُموحُ تَكْوينٍ
يُجدِّدُ قَلْبَ عَالَمِنا العَجوزِ...
أَنا وَأَنْتِ قَصيدةٌ مِنْ فَوْقُ
تَرْفَعُها الملائِكُ مِنْ حَناجِرِها
طُقُوسًا لانبِعاثاتِ المكانِ...

******

هَذا هُوَ التاريخُ، بَعْدُ:
أَنَا وأنتِ –
شَرارةٌ
وَشَرَارَةٌ
وَشَرَارتانِ
تُنَصِّبانِ الأرْضَ بُسْتانًا سَماويًّا
وَتَفْتَتِحانِ تَكْوينَ الحضورِ.
إذًا، لِمنْ يَتَناسَلُ النِّسْيَانُ
في عُمْقِ الذواتِ؟
لِمَنْ
يَفُكُّ الموتُ أُحْجِيَةَ الحَياةِ

وَيَرْتَدي أَكْفانَهُ البَيْضَاءَ؟ –
يُبْصِرُنا الذُّهولُ
وَيُشاهِدُ الزَّمَنَ الخَبيثَ
تَحَرَّرَتْ مِنْهُ شَرارَتُنا،
وَيَسْمَعُ مَا يَقُولُ...
وَيَراهُ مُنْكَسِرًا
عَلَى العُمْرِ الذي ٱنْزَاحَتْ مَرارَتُهُ،
وَغَيَّبَهُ الأُفولُ.
عُمْرانِ في اللاعُمْرِ
يَخترِقانِ خارِطةَ الزَّمانِ
إِلى مَواعيدِ الصَفاءِ المستَحيلِ
ويَخرُقانِ طَبيعةَ الزمنِ الثَّقيلِ
وَيَنْزَعانِ عَنِ الرُّؤى
ثِقْلَ الغِيابِ
وَمَا يَزولُ...

عُمْرانِ في اللاعُمْرِ
يَنْتَزِعانِ مِنْ أبَديّةِ الأحلامِ
مَا رَصَفَتْ حُروفُ الشِّعْرِ في وَلَهٍ
وَمَا عَشِقَ المَقولُ...

******

عُمْرانِ فِي عُمْرٍ
وَدَهْرٌ مُسْتَجِدٌّ،
والزَّمَنُ الصَّغيرُ في أَيْقُونَةِ النِّسْيانْ
يَصِيرُ كَالأَثِيرِ...
خارِجَ الزَّمَانْ،
والعُمْرُ لا يُحَدُّ...

عُمْرانِ فِي اللاعُمْرِ...
وَحْدَهُ الصَّفَاءْ
أَرْضٌ مِنَ السِّحْرِ

يَبْنِي مَعَارِجَ السَّماءْ
فِي فَجْرِنا البِكْرِ...

عُمْرانِ يَسْكُنَانِ لَوْنَ الرُوحْ
وَعَا لَمَ الرَّفْضِ،
وَيَعْشَقَانِ رِحْلَةَ التَّغْييرِ...
خَارِجَ الوُضوحْ
وَخارِجَ الأَرْضِ...

عُمْرانِ أَصْفَى مِنْ أَثِيرْ
تَكْبُرُ فِيهِما أَجِنَّةُ السَّفَرْ،
وَيُولَدُ الضِّياءُ وَالعَبيرُ،
وَيُولَدُ القَدَرْ...

- ٦ -

ماذا أَقُولُ إذا عَشِقْتُ تَواتُري

وتَواتُري عِشْقٌ

وفِرْدَوسٌ أَبيدُ؟

مَاذا أَقولُ

إِذا ٱحْتَرَفْتُ خُروجِيَ المحْتومَ

مِنْ هَذا الزَّمانِ؟

وكَيْفَ يَسْكُنُ غُرْبَتي البَيْضاءَ

كُلُّ الوَهْجِ،

وَالأَلَقُ الشَّريدُ؟

مَاذا أَقولُ

وَقَدْ تَحَطَّمَ عُمْرِيَ المحْبوكُ بالنُقْصانِ
وَالزَّمَنُ العَنيدُ؟ -
كُلُّ الزَّمانِ تَجَمَّعَتْ أَطْرافُهُ
في لَحْظَةٍ
وَتَثَبَّتَتْ أَبَدِيّةً بَيْضَاءَ
مِنْ ثَلْجٍ وَنورٍ
حِينَ وَشَّحَنا اللِقاءُ
وآخَتِ الذاتانِ بَعضَهُما...
فلا ذاتَينِ
بلْ كونٌ جَديدُ...!
كُلُّ الزَّمانِ تَناثَرَتْ ذَرّاتُهُ،
ثُمَّ ٱستَقَرَّتْ ذَرَّةً أَبدِيّةً
في رَوعَةِ التَّكْوينِ...
وَالأَلْحَانُ وَسَّعَها غِناءٌ سَرْمَدِيٌّ
نازِلٌ من فَوقُ

يَحمِلُها النَّشيدُ:
هَذا هُوَ الأَفُقُ الجديدُ،
فَهُبَّ مِنْ ذَاتِي إِلى ذاتِيَّ،
يا عُرْسًا تُوَلِّدُهُ الغَرابةُ
في السَّنَا،
وَاقْرَأْ حُروفَ السِّرِّ
مِنْ وَلَهٍ،
وَعُدَّ، يُها الوَليدُ،
طَفَراتِنا في عَالَمِ الأَبَدِ الطَّويلِ،
كأَنَّما ضَاعَ المكانُ
عَلَى عُروقِ المنتَهَى وَاللامَكَانِ
بذاتِنا الأَبَديَّةِ البيضاءِ
مِنْ زَهْوٍ،
وأَغْوانا هُنا العَبَقُ الجَديدُ:
ذَاتانِ فِي ذاتٍ،

وعُمْرٌ جامِحٌ
أَقوى منَ العُمْرِ المكَبَّلِ بالحَديدِ
يَفوحُ مِنْهُ الشِّعْرُ
والزَّهْوُ المجَنَّحُ،
والقَصيدُ...

******

أَلَذَاتُ لَيْلٌ أَبْيَضٌ
أَصْفَى مِنَ السَّناءْ،
وَالعَا لَمُ الوَلِيدُ كَالدُّخَانِ
تَنْشَدُّ عَيْنَاهُ إِلى السَّماءْ
فَتُولَدُ المعَانِي...

أَلَذَاتُ لَيْلٌ أَبْيَضٌ
أَوْسَعُ مِنْ صَلاةْ
يَغْمُرُنا بِدِفْئِهِ الوَثِيرْ،
وَالعا لَمُ المزْرُوعُ بِالحَيَاةْ

فِي ضَوْئِهِ يَطِيرْ...
أَلَذَّاتُ لَيْلٌ أَبْيَضٌ
تَبْرُقُ فِيهَا الرُّوحْ،
تُعانِقُ الأَعَالي،
وَالعِشْقُ فِي مَقَامِنا المفْتُوحْ
يَزْهُو، ولا يُبالي...

- ٧ -

عَيْناكِ إِنْجيلُ البِداياتِ الجديدةِ،
وانبِثاقُكِ أَوَّلُ التَكْوينِ،
يا رِئَةَ القَصيدَهْ...
عَيناكِ فِرْدَوْسي
وَتَرْنيمُ الملائِكَةِ التي صَنَعَتْ
مِنَ العُمْرِ المُسَيَّجِ بالحُدودِ
مَرامِيَ الآبَادِ
تَغْرَقُ في أَريجِ الزَهْرِ
وَالرُؤْيا البَعيدَهْ...
عَيْنَاكِ كُلُّ نَقاوَةِ الأَحْلامِ

تَرْشَحُ مِنْ دَمي،
وَتَمُدُّ آفاقَ اللُقَيّا
وَهْيَ تَخرُجُ مِنْ فَمي،
وَتُحيطُ أَعماقي بأَفْراحِ السَّديمِ —
هُنَاكَ أَحْلامي المدِيدَهْ
وَمَدَى رُؤايَ
إذا تَدَفَّقَ فِيهِما
نُورُ السَّكينَةِ...
لَيسَ بَيْنَ الصَّمْتِ وَالخَلَجاتِ
غَيْرُ شَرارةٍ
أَصْفى مِنَ الهَذَيَانِ...
عَيْناكِ الرِّهانُ المستَحيلُ عَلى الخُلودِ
وَقِبْلَةُ الصَّلَواتِ
وَهْيَ تَطيرُ في ثَلْجِ التَّوَحُّدِ —
كَيْفَ تَرْفُلُ فِيكِ أحْلامي

فَأَزْهوَ بَيْنَ أَمْداءِ السَّماءِ
وَسِدْرَةِ الخَلْقِ الجَدِيدَهْ؟
عَيْناكِ قَاموسُ الوُجودِ
وَتَرجُمانُ الشِّعْرِ
حِينَ يَصيرُ نَبْضُ الكَوْنِ قافِيَةً
وَرَقْصُ القَلْبِ أَبْياتًا
وَأَخْيِلَةً عَليلَهْ...
عَيْناكِ مِبْخَرَتانِ
يَرْشَحُ مِنْ بَخورِهِما
أَثيرُ الرُّوحِ
في فِردَوسِ أَحْلامِي الطَّويلَهْ...
هَذا هُوَ الحَدُّ الأَخيرُ مِنَ المدى
وَاللازَوَرْدُ سِياجُهُ،
وَاللانِهايَةُ مَلْعَبٌ لِكِيانِنا العُلَوِيِّ.
هَذَا حَدُّنا –

وَحُدُودُنا في المطْلَقِ المفْتوحِ غَارِقةٌ،
وَلَيْسَ لَنَا ٱنتِظامُ:
ثَلْجٌ وَثَلْجٌ...
أَبْيَضانِ عَلى مَعابرِ خَلْقِنا
وَالرَّفْضُ مِفْتاحُ الذي يَأْتي
ودَأْبٌ
لا يُحَدُّ... ولا ينامُ...

******

عَيْناكِ إِنْجِيلُ البداياتِ التي
تُزَيِّنُ الكَوْنَ متى ابتَدا
فَتَبْرُقُ الأَسْرارُ فيهِ كَالنُّجُومِ،
وَحِينَما يَحُفُّهُ الصَّدى
يَذُوبُ كَالرَّذَاذِ فِي التُّخُومِ...

عَيناكِ أُغْنِيَّهْ
تَرْقُصُ فِي إيقَاعِهَا السَّمَاءْ،
والعُمْرُ جِنِّيَّهْ
يَغْمُرُهَا البَهاءْ...

عَيْناكِ صَوْتُ الشِّعْرْ،
حُرُوفُهُ نَارٌ سَمَاوِيَّهْ
تَرْسُمُ وَجْهَ الفَجْرْ،
والأُفْقُ حُورِيَّهْ.

عَيناكِ مِفْتَاحُ الخُلُودْ
وَسُورَةٌ بَيْضاءُ عُلْوِيَّهْ
يَطْلُعُ مِنْ غَوْرَيهِما الوُجودْ
فِي لَمْعَةٍ وَرْقَاءَ زَهْرِيَّهْ...

- ٨ -

أَلليْلُ يَنبِضُ بالنُجومِ
وَكلُّ نَجْمٍ
يَغْرُفُ الأَسْرارَ مِنْ عَينَيْكِ
يَا ٱمرأةً
مِنَ العَبَقِ الأَثيريِّ المحالِ...
وَالكَوْنُ يَخرُجُ مِنْ كِيانِكِ
حِينَ يَرْفلُ فِي كِياني
وَهْوَ يَبرُقُ كاللآلي...
كَوْنٌ بِلا زَمَنٍ
وَلا أَرْضٍ

تُوَلِّدُهُ يَداكِ مِنَ العَدَمْ

وَتَسيلُ مِنْ شَفَتَيْكِ أَنْغامُ السَّماءِ

لِتُوقِظَ الغُفْرانَ

في صَفْوِ النَدَمْ...

عُمْرانِ...

أَصْفى مِنْ سَنا التَّكْوينِ

يأْتَلِقانِ في اللاوَقْتِ —

هَذا فَجْرُنا!

وَلِقاؤُنا

ذَابَتْ بِهِ كُلُّ الجِهاتِ

فَلا جِهاتِ سِوى تَوَاتُرِنا

كَأَنَّ الكَوْنَ ما كانَتْ وِلادتُهُ

وَلا وَطِئَتْ قَدَمْ...

عُمْرانِ...

في فَجْرِ التَوَحُّدِ

يُشْرِقانِ...

وَيَكْشِفانِ طَبيعةَ التَكْوينِ:

لا نُقْصانَ يَكْشِفُهُ الزَمانُ،

وَلا سَدَمْ...

لا شَيْءَ

غَيْرَ مَدًى مُصَفًّى مِنْ رَذاذِ الضَّوءِ،

يَعْقُبُهُ مَدًى وَمَدًى

مِنَ الزَّهْوِ الطَّويلِ

كَأنَّ هَذا الكَوْنَ ضَوءُ الشِّعْرِ

فَاضَ بِهِ القَلَمْ...

أَلشِّعْرُ وَجْهُنا الذي يَمْتَدُّ كَالأَثيرِ
وَيَغْزِلُ الوقتَ الطَّويلَ في حروفِهِ،
وَالكَوْنُ أَبْجدِيَّهْ...
وَبَيْنَ ذاتَينا
اللتَينِ تَرْفُلانِ في العَبيرِ
لا شَيْءَ...
غَيْرَ قَفْزةٍ إلى سَنَا الأُفْقِ الكَبيرِ
وَالعِشْقُ في مَسَارِنا القَضِيَّهْ...

ذَاتانِ في ذاتٍ...

وَكُلَّما تَآخَتِ الأَشياءُ في ٱتِّحادِنا
تَوَسَّعَ المدى...
وَٱحْترَفَتْ أَحْلامُنا الرَّحيلَ
في حَدائقِ الصَدى...
وَكُلَّما تَأَوَّهَتْ قَصيدةٌ على جُفونِنا،
وَكُلَّما زَهَا الجَمالُ في عروقِنا
تَكَسَّرَ الرَّدى
وَٱرْتَدَّ مَهْزومًا إلى نُفوسِنا...

أَنا وَأَنْتِ في قَرارةِ الذُّهولِ
حُلْمانِ أَخْضَرانِ
يَكشِفانِ للخَلائقِ الأَسْرارَ وَالجَمالا...
والعُمْرُ صَفْحَةٌ مِنْ سَحَرٍ
تَناثَرَتْ في فرَحِ الحُقولِ

تَقْطُفُ من كِيانِنا الكَمالا...
أَنَا وَأَنْتِ خَطْرَةٌ
نابضةٌ في رئةِ الوُجودِ
تَقْطُفُ مِنْ مَنابعِ الإلهامِ عِطْرَها
وَمِنْ أَناشيدِ السَماءِ صَوْتَها وَلَوْنَها
وَتَمْسَحُ الزَّمانَ في استِطالَةِ العُقودِ...
عُمْرانِ في عُمْرٍ
ولا حَدَّ لنا —
كَأَنَّنا نَرْفَعُ عَنْ مَكانِنا
تَراكُمَ الحُدودِ...
لا شَيْءَ بَيْنَنا...
لا شَيْءَ يُوقِفُ ٱرْتِقَاءَنا
إلى مَحَجَّةِ الخلودِ...

أَنَا وَأَنْتِ خَطْرَةٌ
مِنْ فَرَحِ الفردوسِ وَالعَبيرِ
وَزَفْرَةٌ مِنْ نَفَسِ القَديرِ
تَكَوَّنَتْ في خَارِجِ الأَمَدْ
وَٱنْشَطَرَتْ ذاتَينِ في ٱنحِدارِها
وَٱلتأَمَتْ حِينَ ٱلْتَقَتْ بصِنْوِها
وَٱبْتَدَأَ العَدَدْ
مِنْ أَوَّلِ الأعدادِ،
وَٱنْتَهى
في أوَّلِ الأَعْدادِ —
كُلُّ مُسْتَحيلٍ صارَ مُمْكِنًا
في الـمُنْتَهى الأَخيرِ،
وَالليلُ حَرْفٌ في قَصيدةٍ،
وَالشِّعْرُ مِفْتاحُ العُبورِ والمصيرِ،
وَالوَحْيُ جِسْرٌ للأَبَدْ...

وَحِينَما ٱنْشَقَّ ضَبابُ الخَلْقِ عَنْ مَخلوقِهِ
وَكُنْتِ أنْتِ،
وُلِدْتُ في عَيْنَيْكِ مُتْعَةَ البَريقِ،
ومُنْذُ كُنْتِ
تآلَفَتْ في ذاتِنا حَدائقُ النَّعيمِ
وَٱسْتَقَرَّتْ شُعْلَةُ الحَريقِ...
أُفْقانِ...
أَصْفى مِنْ غِناءِ المستَحيلِ
حِينَ يَمْسَحُ المكانَ لَوْنُهُ،
فَجْرٌ وَفَجْرٌ:
شُعْلَتانِ مِنْ مَنابِعَ التَكْوينِ
تَرْسُمانِ وِجْهَةَ الطَريقِ...

- ٩ -

رَقَدَ الصَّفاءُ عَلى ٱلْتِئامِ الرُّوحِ
فَانْبثَقَ السَّنا،
وَتَدَفَّقَ الوَحْيُ الإلَهِيُّ المضيءُ
عَلى حُروفِ الشِّعْر،
وَٱمْتَدَّتْ تَواشيحُ الرُّؤى
في قَلْبِنا...
هَجَعَ الأَثيرُ على ٱمتِدادِ الرُّوحِ
فَانْكَسَرَتْ مَسَافاتُ المكانِ
وَرَدَّنا قَبَسٌ
إلى فَجرِ الوُجودِ —

فَكُلُّ شَيْءٍ غارِقٌ فينا هُنا،
وَالكونُ مُنتَظِمٌ بِنا...
وَالخَلْقُ سِرٌّ طافِحٌ
مُتَدَفِّقٌ مِنْ عِشْقِنا...
هَذا هُوَ العِشْقُ الأخيرُ،
فَعُدْ، يُها الزَمَنُ الثَّقِيلُ،
وَشُدَ، يا سَأمَ المكانِ،
مَلامحَ الأشياءِ بالأعْلى،
وهُبَّ، يُها الخُلودُ...
كلُّ المدى طارَتْ بهِ روحي وروحُكِ
نَحْوَ جنّاتِ الإقامَةِ،
وَٱنْتزَعْنا لَعْنةَ العُمْرِ الثَّقِيلةَ
مِنْ خَلايانا،
وَشَعَّ بِنَا الوُجودُ...
أَلَقٌ عَلَى أَلَقٍ،

وَعُمْرٌ لَيْسَ يَدري ما الزَّمانُ،
يَطيرُ فِي أُفُقِ البَهاءِ قَصِيدَةً
إِيقَاعُها مِنْ قَلْبِنَا،
وَحُرُوفُها مِنْ لَوْنِ دِفْئِكِ...
لَيْسَ يُغْرِيهَا سِوَانَا،
وَالحُدُودُ
سَقَطَتْ...
فَمَا بَيْني وَبَيْنَكِ
غَيْرُ ذاتَيْنا،
وَغَيْرُ المطلَقِ المفْتُوحِ لِلآبادِ...
لا إِيقَاعَ
غَيْرُ غِناءِ رُوحَيْنا،
وَلا عِطْرٌ
سِوَى عَبَقِ الضِّيَاءِ...
وَحَوْلَنَا أُفقٌ شَرودُ...

نُورٌ على نُورٍ...
كأنَّ اللّهَ في هَيَمَانِنَا المفتوحِ لِلدُّنْيا
يُبَارِكُ رِحْلَةَ الأَلَقِ التي لا تَنْتَهي،
وَكَأَنَّمَا الأَلَقُ
يَمْتاحُ مِنْ عَيْنَيْكِ
مَا يُعْطِيهِما الإشْراقَ مِنْ رُوحِي
وَيَغْرَقُ فِيهِمَا،
وَكَأَنَّمَا الشَّفَقُ
لا يَقْرَأُ الدُّنيا
سِوَى حَرْفٍ بِرُوحَيْنا
أَشَدَّ سَنًا مِنَ اللَمْعِ
ٱلَّذي يُغْري الصَّلاةَ بِنَا
وَيَأْتَلِقُ...
نُورٌ عَلَى نُورٍ...
وَرُوحَانا نَشِيدٌ مُسْتَحِيلٌ

يَحْتَوِي لَحْنَ الملائِكِ

وَهْيَ تَغزِلُهُ

وَتَصْطَفِقُ...

وَالخَلْقُ مُنْبَثِق بِنَا...

حَتَّى كَأَنَّ الأَرْضَ

تَغْرَقُ في بَحُورِ العِشْقِ ذاهِلةً،

وَتَنْبَثِقُ...!

******

نُورٌ عَلَى نُورٍ...
وَأُفْقُنَا مُشَرَّعٌ
لِلعَبَقِ الآتي مِنَ الأَعْمَاقْ.
أَنَا وَأَنْتِ قِصّةٌ
مِنْ فَرَحٍ
يَعْبَقُ بالآفاقْ،
مِنْ حُلُمٍ
تَحْمِلُهُ الأَشْواقْ
أُسْطُورَةٌ جَدِيدَةٌ تَنْزِلُ مِنْ سَمَائِهَا
هَدِيّةً لِلْعالَمِ الجَدِيدْ —
لِلْعَالَمِ المَفْقودِ مِنْ كِيَانِنَا،

مِنْ فَرَحِ الأَحْداقْ،
مِنْ عُرْسِ حُلْمِنا المديدْ...

أَنَا وَأَنْتِ قِصّةٌ
أرْوَعُ مِنْ غَرابَةِ التَّكْوِينْ
تَنْسُجُ مِنْ أَعْمَاقِنَا
أَرْضًا مِنَ الحَنِينْ...
وَتَرْسُمُ الأَشْيَاءَ في قَرَارِنَا
فَاتِحَةً لِنَكْهَةِ الصَّلاةْ،
لِحُلُمٍ يَضِجُّ بالحَيَاةْ
في عَالَمٍ دَفِينْ...

أَنَا وَأَنْتِ قِصَّةٌ

أَقْوَى مِنَ المكَانْ،
تَخْتَصِرُ الآبَادَ وَالزَّمَانْ،
وتُبْدِعُ الأَشْكَالَ فِي أُرْجُوحَةِ الأَبَدْ،
تَمْسَحُ فِي ٱلْتِئَامِهَا العَدَدْ،
كأنَّهَا تَصْنَعُ مَرَّةً ثَانِيَةً
بِدَايَةَ الإِنْسَانْ...

أَنَا وَأَنْتِ شُعْلَةٌ
مِنْ نَفَسِ السَّمَاءْ
تَنزِلُ نَحْوَ الأَرْضْ
أَصْفَى مِنَ البَهَاءْ،
تَفْتَحُ بَابَ الرَّفْضْ!

أَنَا وَأَنْتِ وَطَنٌ لِلْأَلَقِ
يَخْرُجُ مِنْ خُلاصَةِ الأَحْلامْ،
يَضُوعُ مِنْ حُدُودِهِ العَبيرُ وَالسَّلامْ،
مُحْتَضِنًا كِيَانَنا في العَبَقِ...

أَنَا وَأَنْتِ لُغَةٌ جَدِيدَةٌ
لِكُلِّ مَا يُقالُ
في شَيْخُوخَةِ الزَّمَانْ،
لِلشِّعْرِ،
لِلمَعَارِجِ المضِيئَهْ،
لِلنُّورِ
حِينَ يَغْمُرُ المكَانْ...
حُرُوفُها زَوْبَعَةٌ تُجَدِّدُ الإِنْسَانْ،
تَفْتَحُ بَابَ الرَّفْضِ وَالخَطِيئَهْ...

أَنَا وَأَنْتِ لُغَةٌ جَدِيدَهْ
تَنزِلُ مِنْ فَوْقُ
إِلَى أَرْضِ البَشَرْ
عَظِيمَةً،
رَاسِخَةَ الحُروفِ كَالقَدَرْ...
لِتَبْدَأَ القَصِيدَهْ:
رُوحٌ وَرُوحٌ فِي كِيَانٍ وَاحِدٍ
يَحْمِلُهُ النُّورُ وَأَحْلامُ السَّفَرْ...
وَكُلَّما ٱنْتَهَى
إِلى السَّماواتِ البَهِيَّهْ
أَرَّخَ لِلْعِشْقِ بدايَةً سَنِيَّهْ،
وَفَاضَ فِيهِ الشِّعْرْ
مُغَنِّيًا،
مُؤْتَلِقًا كالسِّحْرْ،

يَقْرَأُ آيَاتِ الحُضورِ لِلْبَرِيَّهْ،
يَبْدأُ سِفْرَ الدَّهْرْ،
وَالْكَوْنُ أَبْجَدِيَّهْ...

(٩ حزيران — ٢٩ تموز ٢٠١٣)

ديزيره سقال

المعلقة السادسة

(أو كتاب الفرح)



نبيّ من أنبياء الشِّعر

سأَلتُ، ذاتَ مرّةٍ، جوزف حرب: "لِمَ كلُّ هذا الحُزْنُ في شِعرِك، وما شِعْرُكَ سِوى مَبْعَثِ فرَحٍ لي وَلِكُثُرٍ غيري؟"

أجابَ، ما عَدَدَتُه أجملَ قصائدِهِ: "يا صَديقي، لم نَجِئْ إلى هذِهِ الدنيا لِنَفرحَ، بل كي نُقَلِّلَ الحُزْن."

وها يَجيئُكَ ديزيره سَقّال بمعلَّقَةِ الفرَحِ، فيلتقي معَ جوزف حرب على أنّ منتهى الفرحِ ومشتَهاه، ما هو إلّا القصيدةُ: الكونُ الجديدُ الذي يخلقهُ خيالُ شاعرٍ، وحلمُ

شاعرٍ، فلا يُمكنُهما أن يكونا، إذذاكَ، إلّا خيالَ إلَهٍ، وقدرةَ إلهٍ على جَعْلِ الحلمِ حقيقةً.

كأنّي بِسَقّال، في معلّقتهِ هذه، وقد تسامى بالذاتِ الإنسانيّةِ، في حالاتِها جميعًا في معلّقاتهِ الخمسِ السابقةِ، نبيٌّ من أنبياءِ الشِّعْرِ، سماؤُه المحبرةُ، وسِدرتُهُ القافيةُ، والكلماتُ صحبُهُ ورعيّتُهُ. وكأنّي بهِ، منهزِمًا أمامَ الحياةِ، يعترفُ بأنَّ الفرَحَ باطِلٌ باطِلٌ، إلّا في الحلمِ، فاخترعَهُ لِيَحياهُ، في القصيدةِ، وشالَ بها كتابَ صلاةٍ، تلتقي فيه الآياتُ والمعجزاتُ، كي تجرَعَ معَه نخبَ الفرَحِ الجديدِ. سِرُّ هذا الفرحِ عَينا امْرَأَةٍ طِفلَةٍ: طفلةٌ أُنثى، معَ ما لِلأُنوثَةِ من خَصْرٍ زَهرٍ، وبَسْمةٍ عَنْدَلَةٍ، وشَعْرٍ حُقولٍ، وقوامٍ امتِشاقٍ عَطْرٍ، ومقلَتَينِ نَبْعُ فَرَحٍ. وقد اخترَعَها من شُرودٍ، وافترَضَها من انعِتاقٍ، واستَحْضَرَها مِنْ غَيْبٍ، حتّى تَماهى والذُّهولَ بِها، لتُصبحَ "حضورًا ثابِتًا"، فكانَ كوْنٌ جديدٌ بِكْرٌ، هو نفسُه الكونُ المخلوقُ في ستَّةِ أيّامٍ، ولكنْ في

قصيدةٍ... هي أَيْضًا بِكْرٌ؛ وكانَ أن استحالَ حلْمُهُ حقيقةً آسِرَةً، بل قُلْ: قَدَرًا.

بذا يُكمِلُ سَقّال تُحْفةَ الخالِقِ، على ما يقولُ سعيد عقل، بإزْميلٍ منْ نورٍ، يَنبثقُ منْهُ قوسُ قُزَح، هو جميعُ السَّماءِ متى انعقَدَ قنطرَةً فيها؛ هو أُنثاهُ التي تَخْتَصِرُ جميعَ النساءِ، فتُشرقُ الشمسُ فرَحًا، تمطرُهُ أيضًا تلكَ السماءُ، ويحتفلُ الكونُ بعُرْسِ الحروفِ.

فالإنسانُ، في "كتاب الفرحِ" هذا، هو أيضًا الخالقُ. هكذا شاءَهُ الخالقُ؛ فيذكِّرُنا الشاعرُ بما شاءَ الله.

وبعدُ،

لا تختلفُ "المعلّقةُ السادسةُ" عن معلّقات الدكتور سقّال الخمسِ السابقة، غِنائيّةً وانسيابيّة، وسَكْبًا وتقطيرًا، وتكثيفًا وترابُطًا، وتكويرًا: كما ليلٌ ونهار، وإيحاءُ: وفرة صورٍ، وغِنى مَعانٍ ومفردات. كأنّي ببستان كلماتها بستانُ نفسِه، لا ثمارَ كثِمارِه، ولا ظلالَ...

وهي، بَعْدُ، أناشيدُ وصلواتٌ، نُظِمَتْ على البَحْرِ المتقارِبِ، عمْدًا ربّما، حيث لا تتقاربُ الآياتُ والسُّورُ وحسبُ، بل قل تَتَداخَلُ أَيْضًا؛ فتَعرجُ فيها الكلماتُ على الجلجلة، وتُسري على الصليب؛ تُصلَب على الوحيِ، هي التي وُلِدَتْ على سِدرةِ المنتهى، وتعتمِدُ بنَهْرِ الحِبْرِ... فتكونُ قرآنَ التأسيسِ والتكوين، وإنجيلَ النورِ والفرحِ.

ديزيره سقال، في معلقته السادسة، أكملَ فِعْلَ التكوين، وقد رأى أنّ ما أتاهُ حسَنٌ، فاستراحَ في اليومِ السابعِ، يومِ الفرحِ وكتابِهِ.

وهل الفرحُ غيرُ الشِّعْرِ والمعلَّقَةِ والقصيدةِ؟

وهل اللهُ غيرُ شاعرٍ، على ما قلتُ في كتابي "مبتدأ جاءَ خبرُهُ"؟ فـ"اللهُ، إلى ما هو، سُبحانَهُ، شاعرٌ؛ الكونُ عنوانُ ديوانِهِ: السمواتُ والأرضُ، اليابساتُ والمحيطاتُ، النجومُ والكواكبُ، العواصِفُ والنسائمُ، الشوكُ والأزاهير، الحياةُ والموتُ، الشوقُ والعطرُ، الملائكةُ والجَمال، الغِلالُ

والعطاءُ... قصائدُهُ. وأحلاها، بينَ هلالينِ، القمرُ والشمسُ... قصيدةُ الأرضِ. لكنّ أَحلى الأحلى، قصيدةُ إنسانِ تلكَ الأرض."

قلْ أكثرَ؟

"كلُّ امرَأَةْ جميلةٍ... قصيدةٌ في ديوانِ اللهِ!"

أَليسَ هذا ما يؤكِّدُهُ ديزيره سقّال في "كتابِ الفرحِ"؟

حبيب يونس

- ١ -

خَارجًا مِنْ ذُهُولي
إِلى وَجْهِكِ المتَبَسِّمِ
آوي إِلَيْهِ،
وَأَرْحَلُ دونَ الزَّمانِ
فَأَغْرقُ في مُقْلَتَيْهِ...
كَأَنِّي تَعَرَّتْ بِعَيْنَيَّ ذاتُكِ
وَٱسْتَيْقَظَ الزَّمَنُ المطْمَئِنُّ
غَريبًا...
علَى طِفْلَةٍ
لَمْ تَزَلْ تَحْمِلُ العُمْرَ

خَمْسَ سِنينَ
وَيَجْلِدُها القَدَرُ المتَواتِرُ،
وَامْرَأَةٍ
أَشْرَقَتْ في ذُهُولِ التَجَلّي
وَذَابَ عَلى وَجْنَتَيْها القَمَرْ
وَمِنْ شَعْرِها ٱنْداحَ
خِصْبُ اليَنابيعِ،
وَٱرتَاحَ في قَلْبِها اللهُ
بَعْدَ سَفَرْ...
طِفْلَةٌ وٱمْرَأَهْ
تُشْعِلانِ الحَياةَ،
تُعيدانِ نَبْضَ الحرارةِ
في ذَاتِها المطْفَأَهْ...

وَأَنا...

لَيسَ فِيَّ سِوايَ،

تَأَمَّلْتُ وجْهَكِ حِينَ تَسَلَّلَ

بَيْنَ مَسامي

قويًّا... كصَوْتِ القَدَرْ

وَعَبَرْتُ الذُّهولَ...

وَئيدًا... وَئيدًا...

كَأَنّي... نَسَيْتُ البَشَرْ...

كَأَنّكِ لَخَّصْتِ فِيَّ

مَتى جُزْتِ بابَ كِياني

جَميعَ البَشَرْ...

******

كَيفَ نَسَيْتُ حُضورِيَ فيكِ!
نَسَيْتُ الحَاضِرَ والماضِيَ
وَٱمْتَزَجَتْ فِيَّ الأَوْقاتْ
لِيَصِيرَ زَمَانُ الناسِ غِيَابًا
وَحُضورُكِ أَنْتِ بَقاءً أَخْضَرَ
يَرْشَحُ مِنْهُ الشِّعْرُ
وَتَحْلُمُ فِيهِ الكَلِماتْ...
وَعرَفْتُ بِأَنَّ مَجيئَكِ
يَرْوي عَطَشَ الفَجْرِ الظّامِي
وَيُلَخِّصُ كُلَّ اللَحَظَاتِ...
كَيْفَ نَسَيْتُ حُضُورِيَ فيكِ!

كَيفَ تَرَكْتُ كِيانِيَ —
كُلَّ كِيَانِي —
فِي عَينَيْكِ!
وَهَجَرْتُ الزَّمَنَ الخارِجَ مِنْ لَحَظَاتي...

- ٢ -

كَيْفَ جِئْتِ إِلَيَّ

مِنَ الغَيْبِ،

أَقْوى مِنَ الغَيْبِ،

أَقْوى مِنَ الحاضِرِ المتَجَذِّرِ

بَيْنَ ثَنايا الحُضورْ!

كَيْفَ أَعْتَقَكِ الغَيْبُ

مِنْ سِجْنِهِ فَجْأَةً

فاخْتَرَقْتِ المسافَاتِ

كالرِيحِ...

وَٱخْتُزِلَتْ في ٱنْبِثاقِكِ

كُلُّ العُصورْ...!
كَيْفَ كُنْتُ أُحَصِّنُ نَفْسي
لأُمْسِكَ بالحُلُمِ المستَحيلِ
فَأَسْقَطَ كُلَّ دِفاعَاتِها
نَظْرَةٌ مِنْكِ،
وَانسَحَبَ الوَقْتُ فِي خَجَلٍ،
وَتَكَشَّفَ جِسْرُ العُبورْ!
صَارَ هذا الزَّمانُ صَديقي
يَجيءُ إِلَيَّ أَليفَا
وَيُجالِسُني في هُدوءٍ
وَيَفْتَحُ بابَ حَياتِي،
يَمُرُّ عَلَى مُقْلَتَيَّ
لَطيفًا... لَطيفَا...
وَكانَ يُقيمُ حُضورُكِ
في الغَيْبِ،

يَزْرَعُ جِسْرَ المسَافَةِ شَوْقًا
وَيَنْتَظِرُ الصَّمْتَ أَنْ يَتَفَتَّحَ وَرْدًا،
وَأَنْ يَتَعالى الحُبورُ
عَلى جُزُرِ الصَّمْتِ
قَصْرًا مُنيفًا...
تَمُرّينَ أَنْتِ
كَطِفْلٍ يُلامِسُ قَلْبي بِرِقَّتِهِ،
وَتَمُرّينَ كَامْرَأَةٍ
ضَمَّخَتْها الحَياةُ بِنورِ الأَلَقْ
وَخَرَجْتِ مِنَ النّائِباتِ
التي ٱنْغَرَسَتْ فيكِ
جُرْحًا عَميقًا،
حُضورًا وَحيدًا...
ولَكِنَّهُ ثابِتٌ
حَدَّدَ الظَّرْفَ وَالمفْتَرَقْ...

وَظَلَلْتِ تَعِيشينَ فِي طِفْلَةٍ
عَرَّشَ النورُ فِيها،
وَأُنْثى يُوَشِّحُها الزَّهْوُ
أَنّ عَبَقْ....
لَمْ يُلامِسْكِ شَيْءٌ
سِوَى أَرَجِ الحُلُمِ المتَحَلِّلِ
بَيْنَ عُيُونِ الغَسَقْ...
لَمْ تَزَالي ٱثْنَتَيْنِ
أَشَدَّ ٱمْتلاءً مِنَ الزَمَنِ المستَحِيلِ،
وآلَفْتِ بَيْنَ الحُضورِ
وَبَيْنَ الغِيابِ،
وَبَيْنَ الهُدوءِ
وَبَيْنَ القلَقْ...

******

سَأَقُولُ: سَلامًا
لِلزَمَنِ الطَّالِعِ مِنّا
يَتَلألأُ فِي الأَرْضِ كَحَقْلِ سَنابِلْ...
سَأَقُولُ: سَلامًا
لِلْسِحْرِ الخارِجِ مِنْ لُغَةٍ
تَكْتُبُ فِي دَفْتَرِها
شِعْرَ الشَّجَرِ المَزْروعِ
عَلى شُطْآنِ طُفولَتِكِ،
وَتُظَلِّلُ سَهْلَ نَقَاوَتِكِ،
وَتُهَدِّلُ فِيكِ الصَّلَواتِ جَدَائِلْ...
سَأَقولُ: سَلامًا

لِلشَّمْسِ تَموتُ وَتُولَدُ
فِي عَيْنَيْكِ
كَعُرْسِ خَمَائِلْ...
سَأَقُولُ: سَلامًا
لِلثَّلْجِ الناصِعِ فِي طِفْلَتِيَ الأُنثَى
وَهْيَ تَفِيضُ خُلودًا
فَوْقَ الزَّمَنِ الزَائِلْ...
تَقْتُلُنِي أُنْثَايَ كَثيرًا
لأَعُودَ جَديدًا... بِكْرًا،
وَأُقَبِّلُ كَفَّ القاتِلْ.

- ٣ -

حِينَ أَخْرَجَكِ الأَلَقُ المتَفَتِّحُ
مِنْ مُهْجَةِ الغَيْبِ
كُنْتِ سَرابًا
بِعُمْقِ الحضورِ الملِيءْ،
والزَّمانُ الَّذي يَتواتَرُ حَوْلِيَ
بَابٌ إلى آخِرِ الوقْتِ
حَيثُ ٱنْبِلاجُكِ أَفْقٌ مُضيءْ...
كانَ بَيْني وَبَيْنَ ٱنْكِشافِكِ
صَمْتٌ طَويلٌ
تُواكِبُهُ هِجْرَةٌ مِنْ دِماءٍ

وَدَمْعُ الطُّفولَةِ يَشْهَدُ
عُمْرًا جَريءْ.
كُلُّ شَيْءٍ يُشيرُ إِلَيْكِ
ولَكِنَّني لَمْ أَرَهْ!
كُلُّ شَيءٍ تَجَلّى لِعَيْنَيْكِ، بَعْدُ،
وَواكَبَني وَجْهُكِ المتَبَسِّمُ
في الأَوْجُهِ العابِرَهْ.
كانَ بَيْني
وَبَيْنَ الظِّلالِ التي حَمَلَتْها حَياتي
حَنينٌ إِلَيْكِ،
وما عَرَفَ القَلْبُ يَوْمًا سِواكِ،
ولا ٱخْتَرَعَ الحُلْمُ فِيَّ
سِوى ٱمْرَأَةٍ...
لم تَكُنْ حاضِرَهْ!
كانَ بَيْني وَبَيْنَ الحَقيقَةِ

ثانيَةٌ

تتكرَّرُ كالعُمْرِ،
أَقْوى مِنَ العُمْرِ،
تَفْتَحُ بابَ الغَرابَةِ
حِينَ تَرانِي...
مَنْ تَكونِينَ أَنْتِ، إذًا؟
كَيْفَ جِئْتِ إِلى مَعْبَدي المسْتَكينِ
بوَحْدَتِهِ
وٱنْبَثَقْتِ كشَمْسٍ
تُضيءُ بذاتي جَميعَ المعانِي! —
تُرى الأَرْضُ بابٌ إِلَيْكِ
ومَنْفَذُهُ فِي فَضاءِ الضِّياءِ الطَّويلِ؟
تُرى جِئْتِ مِنْ حُلُمِ الشِّعْرِ
وَهْوَ يَصُوغُ حُروفَ الأَمانِي؟
كَيْفَ أَخْتَرِعُ اللحْظَةَ الآنَ

وَاللَحظَاتُ ٱنْتَهَتْ فيكِ

والكَوْنُ مُنْبَثِقٌ حَوْلَنا

خَلْفَ هذا المكَانِ؟

كُلُّ شَيْءٍ يَذوبُ بِعَيْنَيْكِ، بَعْدُ،

لِيَخْرُجَ بِكْرًا...

ولا شَيْءَ يَبْقى عَلى حَالِهِ

ثابِتًا

غَيْرُ عَيْنَيْكِ...

كُلُّ المدَى باطِلٌ...

كُلُّ ما عَمِلَ الناسُ تَحْتَ السَّماءْ

باطِلٌ...

باطِلٌ...

كُلُّ ما كَتَبَ الشِّعْرُ

مِنْ غَمْغَماتِ العَناءْ

باطِلٌ...

باطِلٌ...
كُلُّ شَيْءٍ تَغَيَّرَ حَوْلي...
سِواكِ،
وَعَيناكِ مِروَحَةٌ لِلزَّمانِ.
كُلُّ شَيْءٍ،
لأَنَّهُ مَرَّ بِعَيْنَيْكِ،
صارَ وُجودًا،
وَحينَ مَرَرْتُ بِعَيْنَيْكِ
أَدْرَكْتُ أَنَّ الخُلودَ رَآنِي،
وَأَنِّي تَحَوَّلْتُ أُسْطورَةً
فِي كِتابِ الحَيَاةِ
تُلَخِّصُ لِلكَوْنِ
ما قَدْ عَراني،
وَتَمشي إِلَى الأَبَدِ المشْرَئِبِّ،
تُصَيِّرُهُ لَحْظَةً

عَبَرَتْ فِي ٱستِدارَةِ عَيْنَيْكِ،
تَرْسُمُ وَجْهَ الإِلَهِ المخَبَّإِ
خَلْفَ ضِياءِ كِيَانِي.

******

يَتَغَيَّرُ هَذَا الجَسَدُ المحْبوكُ
مِنَ الصَّلْصَالِ
مَتى نَظَرَتْ عَيْناكِ إِلَيْهِ
وَيَعودُ إِلَى مَهْدِ التَّكْوِينْ،
وَتَصِيرُ الأَشْيَاءُ رَذاذَ سَناءٍ
يَخْرُجُ مِنْ أَعْماقِ الطِّينْ...
خَارِجَ عَيْنَيْكِ غِيَابٌ مَمْدُودٌ
وَبِحارٌ مِنْ صَمْتٍ...
وَظَلامُ...
يَلْبَسُنِي العِشْقُ كَجِلْبَابٍ أَبْيَضَ،
وَالتارِيخُ يَصِيرُ جُمُوحًا،

وَالأَيّامُ
تَتَعَلَّمُ أَنْ تَصْنَعَ
مِنْ هَذَا العِشْقِ
فَناءً فِي النُّورِ
لِتَنْفَتِحَ الأَحلامُ –
يَا هَذَا الفَرَحُ الطّافِرُ مِنْ عَيْنَيْها
كَيْفَ أَعُودُ إِلَى ذَاتِي
وَأُذَوِّبَ نَفْسِي فِي كَلِمَاتِي
لأُشَرِّعَها فيكَ...
وَكَيْفَ تُعَبِّرُ عَنْكَ الأَقْلامُ؟

- ٤ -

كَمْ تَرَبَّعْتُ في ضَوْءِ عَيْنَيْكِ
حِينَ عَرَفْتُكِ
أَرْتاحُ في شُرْفَةٍ مِنْ أَثيرْ...
كَمْ جَرَيْتُ معَ الدَّمْعِ
في فَرَحِ الأُمْنِيَاتِ
وَأَرَّخْتُ هذا الهُدوءَ الوَثيرْ...
كَمْ سَمِعْتُ بِصَمْتِكِ
وَقْعَ الضَّجيجِ المدَوّيَ
فِي حَرَكاتِ الكَواكِبِ،
والشَمْسَ تُشْرِقُ

فَوْقَ أَماني الدُهورِ
وتَقْرَأُ قَلْبي كَثيرًا...
وتَحْضِنُ شِعْري كَثيرًا...
وَتَنْبِضُ فِي فَرَحِي
مِثْلَ ضَوْءٍ مُثيرْ...
لَمْ تَغِبْ غَفْلَةً عَنْكِ
لكِنَّها أَحْجَمَتْ أَنْ تَمَسَّ بَريقَكِ،
خَافَتْ، إذَا ٱحْتَرَقَتْ،
أَنْ يَعُمَّ الظلامُ،
وَأَنا خِفْتُ،
حِينَ ٱنبَثَقْتِ إِلَيَّ مِنَ الغَيْبِ،
أَنْ يُتْلِفَ الحُلْمَ
في نَبَضاتِ عُروقي الكلامُ...
وَرَأَيْتُ مَعَ الحُلْمِ كُلَّ كِيَاني
يُضيءُ بعَيْنَيْكِ

أُغْنِيَةً مِثْلَ لَوْنِ الفَرَحْ،
وَرَأَيْتُ مَعَ الحُلْمِ روحِي
تُطِلُّ عَلى الكَلِماتِ
كَقَوْسِ قُزَحْ.

******

أَتَطَهَّرُ فِي مَا يَغْسِلُ
هَذا البَوْحَ البِكْرَ
وَيَجْعَلُ تَنْهيدَاتِ الفَجْرِ
حُرُوفًا لِلزَّمَنِ الآتي...
أَغْسِلُ فِي رُوحِكِ
لَوْنَ العالَمِ،
أَمْلأُهُ بِالأَلَقِ الخارِجِ مِنْ فَلَوَاتي...
سَأَعُودُ سَدِيمًا
يُولَدُ فِي حَرْفٍ بِكْرٍ؛
سَأَصِيرُ هَبَاءً
أَصْفَى مِنْ لَوْنِ التَّكْوِينِ

وَأَصْنَعُ مِنْ وَحْيِي عُمْرِي...
سَأُسَمِّي الأَشْيَاءَ ذُهُولًا فيكِ،
أُسَمِّي الكَوْنَ حُضُورًا فِي عَيْنَيْكِ،
أُسَمِّي شُرُفَاتِ الوَقْتِ
مَدًى لا لَوْنَ لَهُ،
وَالحَيْرَةَ نَارًا
تَصْهُرُ وَعْيَ البَشَرِ...
سَأُذَرِّينِي فِي خَمْرِ المعْنَى
حِينَ تَصِيرُ جَمِيعُ مَعَانِي الدُّنْيَا
حَرْفًا يَبْقى فِي سَفَرِ،
سَأُظَلِّلُ هَذَا الضَّوْءَ بِرُوحِكِ
كَيْ يَرْحَلَ فِي الشِّعْرِ
فَأَصْنَعَ مِنْ حُلُمِي قَدَري...

- ٥ -

يَخْرُجُ الضَوْءُ مِنْ حَقْلِهِ المتَمَدِّدِ
عَبْرَ حُدودِ السَّماءْ
وَيُسَاكِنُ روحَكِ...
تَبْتَسِمُ الأَرْضُ مَذْهُولَةً،
وَالقَصِيدَةُ تَمْتاحُ مِنْ شَفَتَيْكِ كلامًا
لِتَغْدو سَناءْ...
تَتَشَرَّدُ فِي شَفَتَيْكِ الأَغانِي
كَأَنَّ المعَانِي
تَفَتَّحُ فِيها
كَسُنْبُلَةٍ حَبُّهَا ناضِجٌ

كَرَغيفِ ٱشْتِهاءْ.
لَكِ أَنْتِ
تَحَدَّرَ ضَوْءُ السَّماءِ
إِلى الأَرْضِ
وَٱمْتَدَّ دَالِيَةً مِنْ حُقولِ الفَرَحْ،
أَيْقَظَ الطِّفْلَةَ النائِمَهْ.
وكُنْتِ كَبِرْتِ
وَلَمْ تَكْبَري...؟!
كَيْفَ كُنْتِ فَقَدْتِ ضِياءَكِ
فِي زَمَنٍ ضَاعَ مِنْهُ المَرَحْ؟!
وَحَمَلْتِ ضَيَاعَكِ فِي هِجْرَةٍ غائِمَهْ؟
صانَكِ الوَجَعُ المتَفَتِّحُ
داخِلَ قَلْبِكِ
مِثْلَ يَمامَةِ بَوْحٍ وَعِشْقٍ
فَعُدْتِ إِلَى الوَحْيِ...

بَيْضَاءَ... بَيْضَاءَ...
أَكْثَرَ نُورًا مِنَ العِشْقِ
تَخْرُجُ مِنْ ذَاتِهَا
لِتَعودَ إِلَيْها
كَدودَةِ قَزٍّ
تُحَلّي الحَرِيرَ بِعَوْدَتِهَا،
وَتَفَتَّحْتِ فَارِهَةً فِي رَخاءْ...
لكِ أَنْتِ
تَفَتَّحَ مِعْراجُ قَلْبي
وقَدْ مَرَّ دَهْرٌ...
كَأَنَّ الزَّمَانَ الذي ضاعَ ثَانِيَةٌ
لَمْ تَعُدْ فِي الزَمَانِ،
كَأَنَّ اللِقاءْ
سَمَّرَ العُمْرَ
في لَحْظَةٍ أَبَّدَتْ فَرَحَ الكَوْنِ

مِنْ أَجْلِنا
تَجْبُلُ الكَوْنَ طِينًا جَدِيدًا
لِنَخْلُقَ مِنْ عُمْرِنا
ما نَشاءْ...

******

فِي الخَطَوَاتِ تُعَرِّشُ دَالِيَةٌ

وَتَصِيرُ نُجُومُ اللَيْلِ قَوَافِيَ شِعْرْ...

رُوحَانَا مَرْجٌ

تَطْلَعُ فِيهِ صَلَوَاتُ الأَعْلَى زَهْرًا،

وَالعِشْقُ الأَبْيَضُ

يَقْطِفُ هَذَا الزَهْرْ...

وَرُؤَانَا

تَكْتُبُ تَارِيخَ الوَجْدِ

وَتَغْدُو السِّحْرَ

وَصَوْتَ السِّحْرْ...

******

أَلرِّيحُ تُعانِقُنا
بِالضَّوْءِ الثَّلْجِيِّ الصّافِي،
تُشْعِلُ مِصْبَاحَ الوَجْدِ
وَتَقْرَأُنا...
حَرْفًا حَرْفًا...
وَتُهِيلُ عَلَيْنَا إِنْجِيلَ الصَّبْرِ
وَقُرْآنَ التَّأْسِيسْ،
وَالأَبَدُ النّائِمُ فِي عَيْنَيْنَا عُرْسٌ،
وَالنُّورُ الفَائِضُ مِنّا رَقْصٌ،
وَالفَرَحُ المَمْدُودُ عَرِيسْ...

- ٦ -

لَكِ يَفْتَحُ هَذا الوُجُودُ تَبارِيحَهُ
ويُكاشِفُ مِعْراجَهُ...
وَيَنامْ...
كُلُّ أَرْضٍ سَماءٌ بِنا،
كُلُّ شَهْقَةِ قَلْبٍ
تَبوحُ بِأَسْرَارِ كُلِّ التَّوَاريخِ
فِي مَلَكوتِ الكَلامْ...
لَكِ أَنْتِ
يُغَنّي الصَّبَاحُ
عَلَى شُرْفَةِ الشَّمْسِ،

وَالليلُ يَكْتُبُ
مِنْ حِبْرِ عَيْنَيْكِ أَنْجُمَهُ،
وَالمسَافَةُ جُرْحٌ...
كَأَنَّ الأَنامْ
فِي مَتاهَاتِها تَتَشَرَّدُ وَالِهَةً
بَيْنَ جُوعِ المدَى والظَّلامْ.
وَالطَّرِيقُ التِي رَسَخَتْ فِيكِ
وَٱخْتَرْتُ أَنْ أَزْرَعَ الخَطْوَ فِيهَا
زَهَتْ بِالحُضُورِ،
وَأَخْرَجْتِها مِنْ مَلالَتِها
كَيْ تَصِيرَ صِرَاطًا
لِمَنْ قَدَّسَ العِشْقَ –
أَنْتِ الطَّرِيقُ التي جَذَبَتْنِي إِلَيَّ
فَأَرَّخْتُ فيها ٱنْكِشَافَ الفَرَحْ
وَأَسْرَيْتُ لَيْلًا...

فزُرْتُ سَماواتِ عَينَيْكِ
ثُمَّ ٱنْحَدَرْتُ إِلَى الأَرْضِ،
مِنْ فَوْقُ،
قَوْسَ قُزَحْ...
وتَأَمَّلْتُ فِي سِدْرَةِ المنْتَهى
وَجْهَ رَبِّي
فَكانَ السَّنَاءُ الذي ٱنْدَاحَ مِنْهُ رُموشَكِ،
والصَّلَواتُ التي رَنَّمَتْ فِي السَّمَاءْ
شَعْرَكِ المتَهَدِّلَ
بَيْنِي وبَيْنَ حُقُولِ البَهاءْ...
لَكِ أَنْتِ
يُحَلّي الصَّفَاءُ برائِحَةِ الضَّوْءِ
لَوْنَ المياهِ،
وَيَنْتَشِرُ الأَلَقُ البِكْرُ
عَبْرَ مسَاحَةِ عَيْنَيْكِ

مُلْتَمِعًا كَرَذَاذِ الزَّبَدْ،

وَيَصِيرُ الغِنَاءْ

وَهْوَ يَخْرُجُ مِنْ شَفَتَيْكِ

تَرَانِيمَ خَلْقٍ

تُعِيدُ بِرِقَّتِها

خَلْقَ هَذا الفَضَاءْ...

******

أَلْفَجْرُ النّازِلُ مِنْكِ سَدِيمٌ شَفّافٌ
يَغْمُرُني
بِرَذَاذِ الوَحْيِ،
ويَكْتُبُني
فِي سِدْرَةِ قَلْبِكِ،
يَسْكُبُنِي
كالحِبْرِ
لأُخْرِجَ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِكِ الأَحْلامْ...
وَدَمِي يَتَلَوَّنُ مِنْ قَمْحِ كِيَانِكِ،
يَهْمُسُ
كَيْ تَتَجَدَّدَ كُلُّ الأَنْغَامْ...

أَفْرَاحِي مَا عَادَتْ أَفْرَاحِي،
صَارَتْ جِسْرًا
لِلْوَلَهِ الكَوْنِيِّ
وَلِلْأَحْلامِ الكَوْنِيَّهْ...
وَجُنُونِي فَرَسٌ بَيْضَاءُ
تُمَهِّدُ مَحْمَلَهَا
لِلرَّفْضِ الخَارِجِ
مِنْ زَوْبَعَةِ الأَبَدِيَّهْ.
صَارَ الكَوْنُ فُتُونًا
حِينَ كَتَبْتِ دَمِي
وَذُهُولًا
يَصْنَعُ مِنْ لُغَةِ الأَشْيَاءِ البِكْرِ
فَضَاءَ الحُرِّيَّهْ...

هُوَذَا وَطَنِي فِيكِ،
وَأَرْضِي
صَفْحَةُ وَحْيٍ بَرَّاقٍ
وَقَصِيدَةُ حُورِيَّهْ...

- ٧ -

طِفْلَةٌ تَتَكَرَّرُ فِي جَسَدِ امْرَأَةٍ
خَرَجَتْ مِنْ حُدُودِ الزَّمانِ
إِلَى الأَلَقِ المسْتَحيلْ،
شَدَّهَا الحُلْمُ نَحْوي
فَطِرْتُ إِلَى وَحْيِها المتَجَلّي
وَعَرَّجْتُ فِيها
عَلى سِدْرَةِ المنتَهى
بِالذُّهولِ الطَّويلْ...
لَمْ أَجِدْ فِي تَكَاوينِها
غَيْرَ ذَاتي —

وذاتِي أَنَاها!
هَبَطَتْ مِنْ صَفَاءِ الأَسَاطِيرِ
وٱنْشَعَبَتْ فِي سَناها
طِفْلَةٌ وامْرَأَهْ
تُخْصِبَانِ مَدى أَرْضِنا الدّافِئَهْ،
طِفْلَةٌ وَٱمْرَأَهْ
صاغَ بَينَهُما الوَحْيُ سِرَّ النَّبوءاتِ
حِينَ تَماوَجَ أَبْيَضَ كالثَلْجِ،
وٱنْدَاحَ شِعْرًا مضيئًا...
حَمَلَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُما وَجْهَها
فِي صَدى الحِبْرِ وَالكَلِماتِ
وظَلَّتْ عَلى أُفُقِ الذّاكِرَهْ
خَاطِرًا فِي البَرِيقِ
أَشَدَّ حضورًا مِنَ الضّجَّةِ السّاهِرَهْ.
كَانَ مَنْفَايَ فِيكِ

سُؤَالًا بِغَيْرِ جَوَابٍ،
وَكُنْتُ أَرَاكِ
عَلى غَيْمِ رُوحِي
حُقولًا مِنَ الغِبْطَةِ الآسِرَهْ...
وَمَنْفَاكِ مَنْفَايَ —
نَزْهُو مَعًا
فِي قَصيدَتِنا الطَّافِرَهْ
وَنُعَبِّئُ بِالحَيْرَةِ المسْتَريحَةِ
هَذا الوُجودَ المفَرَّغَ مِنْ ذَاتِهِ
فِي ضَيَاعِ السَّفَرْ...
نَحْنُ تَارِيخُنا
وقَصِيدَتُنا الحَائِرَهْ،
نَحْنُ كُنْهُ الوُجُودِ الذي
صَنَعَتْهُ البَشَرْ.
نَحْنُ هَذا الفَضاءُ الذي سَطَّرَ الحُلْمَ

فِي لُغَةٍ
تَتَرَدَّدُ حَوْلَ المدى...
كالشَّررْ.
نَحْنُ مِحْبَرَةُ الخَلْقِ
وَالشِّعْرُ يَخْرُجُ
مِنْ هَذِهِ المِحْبَرَهْ.

******

أَللَهَبُ الجَاثِمُ في سِدْرَةِ هذا الكَوْنِ يُحَرِّكُنَا
وَيُعَرِّشُ فِي ذَاتَيْنَا:
لَهَبُ وَطَنِي...
لَهَبُ مَنْفَايَ الرَائِعُ
أَجْثُو فِيهِ
بِصَمْتِ الصَّخَبِ...
لَهَبٌ يَكْتُبُ
هَذَا التّارِيخَ الخَارِجَ مِنَّا
بِنُجُومِ الرُؤْيَا
وَبِتَارِيخِ الزَّهْوِ المعْقُودِ رَذَاذَ نُجُومٍ...
لَهَبٌ أَبْيَضُ

يَنْبِضُ فِي عَصَبِي...
لا شَيْءَ سِوَانا
فِي أَبَدِيَّةِ عُمْرٍ
يَخْرُجُ مِنْ عُمْقِ رُؤَانَا.
لا شَيْءَ سِوَانا
فِي الملَكُوتِ المتَفَتِّحِ
حَوْلَ مُنانا...
لا شَيْءَ
سِوى أَبَدٍ أَبْيَضَ
يَقْرَأُ فاتِحَةَ الأَشْيَاءِ
وَيَلْعَبُ فِي مُطْلَقِنا...
وَيَجُولُ.
كُلُّ زَمَانِ الدُّنْيَا
غَارَ بِحَرْفٍ مِنْ شَفَتَيْكِ
وَأَزْهَرَ فِيهِ مَلَكُوتٌ

وَمَدًى
وَسُهُولُ...
يا هَذا البَوْحَ المتَرَاكِمَ فِي ثَغْري
كَيْفَ أُعَبِّرُ، بَعْدُ،
عَنِ المعْنى الأَبَدِيِّ
وَماذَا سَأَقُولُ؟

- ٨ -

خَرَجَ الفَجْرُ مِنْ مُقْلَتَيْكِ
وَمَدَّدَ أَضْوَاءَهُ فَوْقَ رُوحِي
وَأَزْهَرَ فِي كَلِمَاتي.
سَأُوَشْوِشُ فِيكِ الزَّمانَ الذي
عَادَ أَدْرَاجَهُ
حِينَ لامَسَ وَجْهَكِ
ثُمَّ تَناثَرَ مِثْلَ الرَّذَاذِ
عَلى نَظَرَاتي...
سَأُحَرِّضُ هَذا الرَّحِيلَ إِلى النُّورِ
كَيْ يَخْرُجَ المسْتَحِيلُ إِلَيْنا

وَيُغَنّي عَلَى وَجْنَتَيْنَا
كَطِفْلٍ صَغيرٍ...
سَأَجْعَلُ هَذا الظَّلامَ المضِيءَ
يَنامُ عَلى سَاعِدَيْنَا
وَأَجْعَلُ هَذي النُجُومْ
تَفْتَحُ الفَرَحَ المتَفَجِّرَ
بَيْنَ الثّرى والتُّخومْ...
أَيُّها الفَرَحُ المتَفَتِّحُ
فِي وَجْنَةِ العِشْقِ،
فِي غَمْغَمَاتِ المدى،
كُنْ سَلامَ الهُدوءِ الذي لا يَدومْ.
أَيُّها الفرَحُ المتَدَفِّقُ
مِنْ ناظِرَيْنا،
كُنْ خُطانَا إِلى الشَّمْسِ...
كُنْ أَلَقَ العِشْقِ

يُزْهِرُ بَيْنَ يَدَيْنَا...

سَتَصِيرُ الغُيُومْ

لُغَةً للرَحيلِ إِلى الحِلْمِ

وَالرِّيحُ رايَتَها،

وَالطُّيُورُ زَوَارِقَ

تُبْحِرُ فِي عُمْرِهَا

هَائِماتٍ، شَريدَهْ...

سَيَصيرُ الزَّمانُ

حُروفًا مِنَ الأَبَدِ المتلألِئِ

بَيْنَ سُطُورِ الدَّوالي

وَزُهْدِ الكُرومْ

وَنصِيرُ كِلانَا القَصيدَهْ...

******

أَلقَلْبُ يَسِيلُ حُروفًا،
وَالتَارِيخُ يُسَطِّرُهُ الوَحْيُ
فَيَخْرُجُ مِنْ مِحْبَرَةِ الوَجْدِ جَدِيدًا،
وَيُعِيدُ صِنَاعَةَ مَمْلَكَةِ الأَشْيَاءْ...
وَرُؤَانَا
تَتَشَابَكُ فِي أَعْلاهَا،
تَكْشِفُ عَنْ وَحْيٍ ضَوْئِيٍّ
يَنْصَبُّ عَلَيْنَا
مِنْ أَعْلَى السَّمْتِ
وَيَحْمِلُ مَعْنَى الأَسْمَاءْ...
عَلِّمْنَا الآيَاتِ المحْفورةَ

فِي قُرْآنِ التَّكْوِينِ،
وَعَلِّمْنا أَنْ نَصْنَعَ
مِنْ هَوْلِ الموْتِ حُضُورًا،
وَمِنَ الصَمْتِ قَصَائِدَ
تَحْمِلُ صَوْتَ مَلائِكَةِ الفِرْدَوْسِ...
وَعَلِّمْنَا
أَنْ نَسْكُنَ فِينَا،
أَنْ نَنْظُرَ نَحْوَ النُّورِ الفَائِضِ مِنْ عَيْنَيْنا.

******

أَلقَلْبُ يَسِيلُ حُرُوفًا
وَاللغَةُ البِكْرُ تُعِيدُ كِتَابَةَ هَذَا الكَوْنِ
بِآيَاتِ القَلْبِ –
هُنَا البَشَرُ
أَصْوَاتٌ تَتَجَسَّدُ مِنْ فَوْقُ،
وَتَحْمِلُ رُوحَ الأَعْلَى فِي دَعَةٍ،
وَتُحَقِّقُ حُلْمَ الشِّعْرِ،
وَتَبْتَكِرُ...
وَهُنا صَوْتُ الآتِي
يَرْسُمُ أُغْنِيَةَ الماءِ
وَيُعَانِقُ غَمْغَمَةَ الأَشْيَاءِ...

وَاللَيْلُ جَدَائِلُ وَحْيٍ،
وَالوَقْتُ يُعَانِقُهُ ضَوْءُ وُرُوردٍ عَطِرُ...
وَهُنا النَّظَرُ
يَمْتَدُّ إِلَى مَا فَوْقَ الدُّنْيَا
لِيَرَانا
تُنْزِلُ غَيْثَ الأَرْضِ يَدَانا،
وَيَرَانا
يَتَهاوَى الوَقْتُ عَلَى أَعْقَابِ خُطَانا
وَيَعُودُ إِلَى الزَّمَنِ المخْذُولِ
وَيَنْكَسِرُ...

- ٩ -

ذَرْذَرَ الخَلْقُ آياتِهِ
مِنْ مَسامِكِ،
وَٱنبَثَقَتْ مِنْ رُؤى شَفَتَيْكِ السُّوَرْ.
فَرَحُ الخَلْقِ يَنْبِضُ حَوْلَكِ،
واللهُ زَرْكَشَ مِنْ ناظِرَيْكِ الزَّهَرْ،
وَٱسْتَقَرَّ على صَهْوَةِ الكَوْنِ
يَنْظُرُ ما صَنَعَ الحُلْمُ
حِينَ تَجَسَّدَ فِي بَشَرٍ
فَتَجاوَزَ حَدَّ البَشَرْ.
كُلَّما كَتَبَ الشِّعْرُ تارِيخَهُ

كَانَ أَصْفَى بِعَيْنَيْكِ...
وَٱزْدَدْتُ نُورًا
مَتى زُرْتِ عَيْنَيَّ،
وَٱزْدَادَ فِيَّ الصَّفَاءْ،
وَعَرَفْتُ ٱمْتِلاءَ الحُضُورِ،
عَرَفْتُ ٱنْكِشَافَ الزَّمَانِ،
عَرَفْتُ الوِلادَةَ فِي سَرْمَدٍ
مُسْتَحيلِ البَهاءْ...
كُلُّ غِبْطَةِ هَذا الوُجودِ
تَراءَتْ لِعَيْنَيَّ فِي أَبْيَضٍ،
وتَعالى النِداءْ
مِثْلَ صَوْتِ الأُلوهَةِ فِي الخَلْقِ
يَنْدَاحُ فِيكِ،
وَيَرْحَلُ فِي ناظِرَيْكِ
كَأَنَّ يَدَيْكِ

تَرُدّانِ لِلْكَوْنِ حَالَ العَراءْ،
وَكَأَنَّ الإِلَهَ ٱسْتَرَاحَ أَخِيرًا،
يُتَمْتِمُ فِي صَلَوَاتِ العُلى:
"هَا صَنَعْتُ مِنِ ٱمْرَأَةٍ
أَكْمَلَ الخَلْقِ فِي لَيْلَةٍ
وَجَمِيعَ النِّساءْ...!"

******

أَلْفَرَحُ النّازِلُ مِنْ فَوْقُ
سِلالٌ مِنْ نُورْ
وَالأَلْوَانُ البَرّاقَةُ
تَخْرُجُ مِنْ أَعْمَاقِ الدَّيْجُورْ...
وَالأَبَدُ المتَفَجِّرُ مِنْ أَعْلَى
يَنْهَلُّ عَلَيْنَا...
وَيُراقِصُنَا
فِي الملَكُوتِ المسْحُورْ...

أَلْفَرَحُ النَازِلُ مِنْ فَوْقُ يُصَلّي

فِي قُدّاسِ الصَّحْوِ المتَجَلّي،
وَالزَّهْوُ نَشِيدٌ
مِنْ لَوْنِ الأَلَقِ المنْثُورْ...

أَلْفَرَحُ النّازِلُ وَجْهُ التَّكْوِينْ،
دِيوانُ الشِّعْرِ الآتي،
أَحْفُرُ نُورَهُ فِي كَلِمَاتِي،
أُخْرِجُهُ كَوْنًا
مِنْ أَعْمَاقِ الطِّينْ...

أَلْفَرَحُ النّازِلُ مِنْ عَيْنَيْكِ
عُرْسُ الكَوْنْ
يَتَقَافَزُ مِنْهُ اللَوْنْ

لِيَصِيرَ صَدَى آيَاتٍ فِي شَفَتَيْكِ...

نَبْدَأُ مِنْ أَبَدٍ
هَذي الرِحْلَةَ فِي الأَضْوَاءْ...
نَبْدَأُ مِنْ عِشْقٍ
يَتَحَدَّرُ مِنْ رَبٍّ وَسَماءْ...
نَبْدَأُ مِنْ بَسَمَاتِ الأَبَدِ
ٱلمتَمَدِّدِ حَوْلَ مَباخِرِنا
لِنَرُدَّ إِلَى الكَوْنِ الدَّهْشَةَ وَالأَلْوَانَ
وَنَحْفَظَ فِيهِ
غِبْطَتَهُ النُّورانِيَّهْ...
نَبْدَأُ مِنْ ضِحْكَاتِ الأَطْفَالِ
وَمِنْ عَبَقِ الأَلْوَانِ الزَّهْرِيَّهْ
وَنُعَبِّدُ هَذَا الشَّفَقَ الخارِجَ مِنّا

أَوْسَعَ مِنْ أَحْلامِ الأَرْضْ
يَتَحَرَّكُ فِي أَعْمَاقِ الرَّفْضْ
وَيُعَانِقُ لَوْنَ الحُرِّيَّةْ...

أَللهُ السّاكِنُ فِي عَيْنَيْكِ يَفِيضُ عَلَيَّ
وَيَجْعَلُنِي حَرْفَ قَصِيدَتِهِ
لِتَكُونِي أَنْتِ الوَحْيَ البِكْرَ
وَأَنْتِ اللغَةَ البِكْرَ...
وَتَنْسُلَ فيكِ الأَحْلامُ...
أَلخَلْقُ يَتِمُّ الآنَ
فَأَلْبَسُ عَيْنَيْكِ
وَأُغْرِقُ فِي الفَرَحِ المتَقَافِزِ نَفْسِي
وَأَنامُ...

(٤ – ٢٨/ ٦/ ٢٠١٤)

ديزيره سقال

المعلقة السابعة

(أو كتاب الخلود)



مقدّمة

كَانَتْ مَسْألةُ الوجودِ أُولى مُعْضِلاتِ الإنسانِ الَّذي رَأى نَفْسَهُ يُواجِهُ الموتَ، مُنْذُ فَجْرِ الخَليقَةِ؛ وَكُلَّما ٱزْدادَ الوَعْيُ في الإنسانِ تَفاقَمَتْ هذه المسأَلةُ، لِأَنَّ وَعْيَهُ المتزايِدَ بِذاتِهِ يَجْعلُهُ أَكْثرَ إِلْحاحًا عَلى أَنْ يُبْعِدَها عَنِ الزّوالِ.

وَجاءَتِ الأَدْيانُ القَديمةُ لِتَكْشِفَ لِلإنْسانِ أَنَّ الآلِهَةَ خَالِدَةٌ، وَالبَشَرَ مَحْكومونَ بِالزَّوال. وَكانَتْ رَحَلاتٌ في

الميثولوجيا وَالملاحِمِ القَديمةِ، بَحْثًا عَنِ الخُلودِ، انْتَهَتْ كُلُّها بِالفَشَلِ.

ثُمَّ كَانَتِ الأَدْيانُ السَّماوِيَّةُ الّتي كَشَفَتْ لِلْإِنْسانِ أَنَّهُ مَجْموعُ مُتَناقِضَينِ: فَقِسْمٌ مِنْهُ تُرابِيٌّ، زائِلٌ، وَقِسْمٌ مِنْهُ إِلَهِيٌّ خالِدٌ، لِأَنَّ مَصْدَرَهُ مِنْ لَدُنِ اللهِ، فَحَقَّقَتْ بِهذا أَقْصى مَا يَطْمُحُ البَشَرُ إِلَيهِ، وأوصلتْهم إلى الخُلود.

وَلَكِنَّ الوَعْيَ المتَزايِدَ في الإنْسانِ ظَلَّ يُلِحُّ عَلَيهِ لِيَبْحَثَ... وَكُلَّما ازْدادَتْ رَهافَتُهُ ازْدادَ إِحْساسًا بِأَنَّ ذاتَهُ نَفْسَها هِيَ الّتي تُعْطِي الوُجودَ معْنًى، فَما حَوْلَهُ مادَّةٌ غُفْلٌ، تَكْتَسِبُ مَعانِيَها مِنْ ذاتِ مَنْ يَعْقِلُها، وَبالتّالي تَكْتَسِبُ مِنْهُ وُجودَها الفِعْلِيِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ.

وَجاءَ التَّعْبيرُ عَنْ هذهِ الكُشوفِ فِعْلًا عَقْلِيًّا مَحْضًا، فَكانَتِ الفَلْسَفَةُ؛ لَكِنَّ القِسْمَ العَميقَ في الإنْسانِ، في حرَكَتِهِ الدّائمَةِ تَحْتَ جَليدِ السَّطْحِ، ظَلَّ لُغْزًا مُتَأَلِّقًا في الإِمْكانِ المفْتوحِ، فَكانَتِ الفُنونُ تَعْبيرًا عنِ الشُّعورِ، أَيْ

عَمّا يُفْلِتُ مِنْ صَرامَةِ العَقْلِ، وَرَبْطًا بَيْنَ عالَمَيْنِ: عالَمِ المادّةِ الفاني، وَعالَمِ الرّوحِ الخالِدِ؛ وَهيَ تَسْحَبُ الإِنْسانَ مِنْ بَشَرِيَّتِهِ المأْلوفَةِ، لِتَجْعَلَهُ خالِقًا بامْتِيازٍ، تَشُدُّ بِهِ إِلى فَوْقُ، كيْ يَخْرُجَ نَحْوَ المطْلَقِ. وَالشِّعْرُ، لَـمّا كانَ أَرْقى الفُنونِ جِميعًا، لِأَنَّهُ يَجْمعُ بَيْنَ الشَّكْلِ والمعْنى والموسِيقى، وَيُضيفُ إِلَيْها الحَرْفَ، عَبَّرَ عَنِ المعْضِلَةِ العَميقَةِ في جَوْهرِ المسْأَلَةِ: عَنِ الصِّراعِ الدّائِمِ في ذَاتِ الشّاعرِ بَيْنَ الواقِعِ والمثالِ، بَيْنَ الخلودِ وَالزَّوالِ، والحياةِ والموتِ، والجَمالِ والقُبْحِ، والواحِدِ والمتَكاثِرِ، والمطلَقِ والمحدودِ... وَكُلُّ هذهِ مُتناقِضاتٌ تتصارَعُ داخِلَ الذّاتِ الإنْسانِيّةِ، وَتَمْنَحُ الإنْسانَ مَقْدِرةً عَلى وَعْيِ الوُجودِ، وَإِدْراكِ القُدراتِ الإلَهِيَّةِ فيهِ، فَيَتَحَرَّكُ نَحْوَها، وَيَخْرُجُ مِنْ عَرَضِيَّةِ العالَمِ المحْكومِ بِالزمانِ والمكانِ، إِلى الأَبَدِ المتَفَلِّتِ مِن حِصارِ المكانِ، وتَهْديدِ الزّمانِ. هكَذا يَقْهَرُ الموْتَ، وَيُحَقِّقُ ذاتَهُ وَقَدَرَهُ الأَبْعَدَ: الخلودَ، مِنْ خِلالِ الشِّعْرِ، لِيَكونَ صَوْتَ نُبُوَّةٍ، وَظِلَّ إِلَهٍ.

هَذهِ هِيَ الأَشْغولَةُ المرْكَزِيَّةُ الَّتي بُنِيَتْ عَلَيْها المعَلَّقَةُ السّابِعةُ: انْشِدادُ الإِنْسانِ نَحْوَ الخُلودِ، وَانْتِصارُهُ الحَتْمِيُّ عَلى الموْتِ بِالشِّعْرِ؛ لِهذا أَسْمَيْتُها: "كِتابَ الخُلود"، وَخَتَمْتُها بِالوُصولِ إِلى الأَبَدِيَّةِ، وَبالتَّحْقيقِ المطْلَقِ لِلذّاتِ، وقَسَمْتُها اثْنَي عَشَرَ مَقْطَعًا، لِأَنَّ هذا الرَّقْمَ يدُلُّ على الكَمالِ، تَمامًا كَالرَّقْمِ ٧. وَكُنْتُ بَدَأْتُ هَذهِ الرِّحْلَةَ في المعَلَّقَةِ الأُولى، وَأَكْمَلْتُ في ما أَعْقَبَها، عابِرًا مِنْ طُفولَتي، إِلى شَبابِي الَّذي تَعَرَّفْتُ فيهِ إِلى الشِّعْر، فأَبْقاني شابًّا، وَمْنُهُ إِلى الحُبِّ، أَسْمى المشاعِرِ البَشَرِيَّةِ، وُصولًا إِلى هذه المعلَّقَةِ الأَخيرةِ. وَكانَتْ تَتَنازَعُني دائِمًا رَغْبَةٌ في الوُصولِ إِلى ما هُوَ خارِجَ المحْدودِ، تَحْقيقًا لِلذّاتِ الإِنْسانِيَّةِ بداخِلي، وهي في قِمّةِ اكْتِمالِها؛ وَكانَ الصِّراعُ بَيْنَ النُقْصانِ وَالتَّمامِ، وَالواقِعِ وَالمثالِ، يُحَرِّكُ ذاتي في كُلِّ آنٍ.

وَبَعْدُ،

أَلا يَكونُ الفَنُّ عُمومًا، وَالشِّعْرُ خُصوصًا، بابًا يُدْخِلُ الإِنْسانَ إِلى الأَبَدِيَّةِ؟

ديزيره سقال

"هَزَمَتْكَ، يا مَوْتُ، الفُنونُ جَميعُها."

(محمود درويش)

- ١ -

غَارِقًا فِيَّ،
أَقْرَأُنِي
مِثْلَ حَرْفٍ تَخَبَّأَ بَيْنَ الرَّذَاذِ،
وَأَلْقَى بِقِسْمَيْهِ
فِي أَلَقِ الذّاكِرَهْ...
غَارِقًا فِيَّ،
أَبْحَثُ عَنِّي،
أُلَمْلِمُ مِنّي وَميضَ الكِيَانِ،
وَأَعْبُرُ فِي الصُّوَرِ العابِرَهْ:
كُلُّ مَا فِيَّ مُنْفَتِحٌ

يَتَأَرَّجُ حَوْلي،
وَيَرْشَحُ مِنْ خَلَلِ الخاطِرَهْ...
كُلُّ ما فِيَّ
يَحْمِلُ خَتْمَ الزَّمانِ وَخَطْواتِهِ
كَيْ تُقَفِّيَهُ الذّاتُ،
أَوْ يَجْرَحُ العُمْرَ
كَالبَرْقِ عَبْرَ الغُيومِ،
وَسِكّينُهُ الذِّكْرَياتُ،
وَنَزْفُ شَرايينِهِ اللغةُ الماكِرَهْ...
كُلُّ شَيْءٍ يُشِيرُ إِلَيَّ
كَأَنّي أَنا الأَصْلُ
فِي كُلِّ هَذا الوُجودِ
أُحيلُ إِلَيَّ الخَليقَةَ أَخْيِلَةً
فِي حُروفٍ...
كَأَنّي أَنا

تَرْجُمَانُ الوُجودِ
ٱلَّذي يَتَناثَرُ حَوْلَ كِياني
لُقَيّاتِ شِعْرٍ
يُحَرِّرُها الشِّعْرُ في نارِهِ الآسِرَهْ!

******

هَكَذا

يَغْمِسُ الشِّعْرُ أَحْرُفَهُ

في صَدى الذِّكْرَياتْ...

هَكَذا

يَفْتَحُ القَلْبُ

ما خَبَّأَتْهُ السُّنونَ

وَما نَثَرَتْهُ رَذاذًا

عَلى مَدِّ أَيّامِهَا الهائِماتْ...

هَكَذا

يُبْحِرُ الزَّمَنُ المتَكاثِرُ

عَبْرَ خَلايايَ

مِثْلَ السَّفينَةِ،
أَوْ مِثْلَ لِصٍّ
يُفَتِّشُ بَيْنَ زَواياي عَنْ غُنْمِهِ...
وَأَنا مُبْحِرٌ فِيَّ،
أَلْتَقِطُ الصُّوَرَ العابِراتْ،
أَنْحَني فَوْقَ عُمْري
لِأَقْرَأَ أَحْرُفَهُ
وَأُضيءَ بِها أَلَقي،
وَأَعودَ إِلَيَّ كَثيراً... كَثيراً...
تَقاطَعُ فِيَّ المجَرّاتُ والكَوْنُ حَوْلي
وَكُلُّ المخاليقِ في ما يُحيطُ كِياني،
وَأَحْلامِيَ الرَّائِعَهْ...
وَأَسْتَلُّ مِنّي حُروفَ القَصيدَةِ،
أَقْرَأُ ذاتي
وَأَكْتُبُها في المعَلَّقَةِ السّابِعَهْ!

- ٢ -

أَعُودُ إِلَى ثَنايا الوَقْتِ
طِفْلًا يَقْرَأُ الدُّنْيا
بِعَيْنِ الدَّهْشَةِ الأُولى،
وَيَقْتَرِفُ التَّساؤُلَ
مُوغِلًا بِغَرابَةِ المكْشوفِ،
مَذْهولًا بِأَحْرُفِهِ المضيئَهْ...
وكُلُّ الناسِ مِنْ حَوْلِي شَراراتٌ
تَمُرُّ على جُفونِ الوَقْتِ
يَقْرَأُها لِيَكْشُفَ عَنْ مَعانيها الخَبيئَهْ.
ذُهولًا كُنْتُ مِنْ زَمَنٍ،

أُراقِبُ قُبَّةَ المَجْهولِ تَسْحَرُني،
وَتَأْخُذُني مَعانيها...
وَكُنْتُ غَرابَةَ الوَعْيِ
ٱلَّذي ٱنْفَتَحَتْ بِعَيْنَيْهِ المعاني،
وَسافَرَتِ الحُروفُ إِلَى مِدادي
حِينَما بدَأَتْ لُقَيَّاهُ تَفَتَّقُ
في فَضاءِ الشِّعْرِ –
وَالشِّعْرُ المجَنَّحُ
يَحْمِلُ الأَشْياءَ فِي نَظَري،
وَيَحْمِلُ لي كِياني...
وَشَرَّعْتُ المدى،
وطَفَرْتُ نَحْوَ صِبايَ
يُغْريني الصِّبا بِدَلالِهِ
وَيَشُّقُّ في زَهْوي زَماني...
وآخَيْتُ المرارَةَ والحُبورَ

بِقَلْبِيَ المفْتوحِ،

وَٱنْتَظَرَتْ حَياتي

أَنْ تُقَطِّفَ منْ تَناقُضِها

ثِمارَ المسْتَحيلِ...

وَأَنْ يَجيءَ شَبابُها الدَّفّاقُ بالأَحْلامِ

تَرْسُمُني بِعَيْنَيْها شُعاعًا،

ثُمَّ أَجْهَلُ مَا عَراني!

وَصارَ الحَرْفُ لي كَوْني،

وصارَ الشِّعْرُ راياتي أُعَلّيها

وَأُغْمِدُها بِقَلْبِ الكَوْنِ

فِي أَبَدِيَّةٍ بَيْضاءَ

أَدْخُلُها...

وَأَحْلُمُ بالأَمانِ...

******

شَبابي روحِيَ البَيْضاءُ
تُحْييني
وَتَدْفُقُ في عروقي
مِثْلَ شَلّالٍ مِنَ النارِ الَّتي ٱلْتَهَبَتْ
لِتَعْزُفَ لَحْنَها في القَلْبِ...
أَرْفَعُهُ ٱنْتِماءَ،
يَصونُ خُلودِيَ المعْجونَ بالإِيمانِ
وَهْوَ يُظَلِّلُ الدُّنْيا
وَيَجْعَلُها قَصيدَتَهُ،
وَيُعْلِنُها ٱشْتِهاءَ.
شَبابي يَحْفُزُ الأَبَدِيَّةَ البَيْضَاءَ

أَنْ تَحْتَلَّ روحي،
وَيَنْشُرُ رايَةَ الشِّعْرِ المجَنَّحِ فَوْقُ...
في أعْلى جُموحي...
يَرى، مِنْ فَوْقُ،
هَذا الكَوْنَ،
يَهْدِمُهُ وَيَبْنِيهِ،
وَيَعْجُنُهُ بِطينِ الخَلْقِ
كَيْ يَغْدو فَتِيًّا
صَالِحًا لِيَكونَ مُمْتَدًّا
عَلى رُؤْيا طُموحي.

- ٣ -

يَخْرُجُ الوَقْتُ مِنْ بَيْتِهِ المتَعالي

وَيَنْزِلُ نَحْوي...

لِيَشْرَبَ قَهْوَتَهُ

وَيُؤاكِلَني وادِعًا... وادِعًا...

يَغرَقُ الوَقْتُ في ناظِرَيَّ،

يَذوبُ... كَحَبَّةِ سُكَّرْ،

وَيُصْبِحُ أَصْغَرْ!

يَنْزِلُ الوَقْتُ مِنْ بُرْجِه المتَعالي،
وَيُنْزِلُ عَنْ ظَهْرِهِ عِبئَهُ،
وَيُعانِقُني...
مِثْلَ شَيْخٍ يَعودُ إِلَيْهِ الشَّبابُ،
وَيَغْدو بِظِلِّيَ لَوْزًا مُقَشَّرْ...
لَيْسَ بَيني وَبَيْنَ عَباءَتِهِ
غَيْرُ قالَبِ حَلْوى
يُزَيِّنُهُ،
وَيُقاسِمُني طَعْمَهُ.
كُلَّما ذُقْتُهُ ٱشْقَرَّ شَعْرِي
لِأَخْرُجَ مِنْ نِظْرَةِ الوَقْتِ
أَوْغَلَ فِي البُعْدِ عَنْهُ...
ولا بَيْتَ لي، بَعْدُ...
لا أَرْضَ...

لا شَجَرٌ أوْ زَمانْ.
كُلُّ هَذا المكانْ
ضاقَ فِي مُطْلَقي
حِينَ وَشَّحَهُ القَلْبُ بِالشِّعْرِ
فامْتَصَّ كُلَّ الوُجودِ الكِيانْ!

******

يَخْرُجُ الوَقْتُ مِنْ بَيْتِهِ
لِيَصيرَ أَليفًا...
يَخْرُجُ الوَقْتُ مِنْ جِلْدِهِ
نَحْوَ أُفْقٍ يُحاصِرُهُ الزَّمَنُ المتَوَقِّفُ
عِنْدَ حُدودِ الشَّبابِ،
وَأَمْسَحُ فيهِ رُتوبَ اللَيالِي،
وَأَنْزِلُ في كُلِّ قَلْبٍ كَقَلْبي
لِأَجْمَعَ مِنْ كُوَّةِ الشِّعْرِ
باقاتِ أَحْرُفِهِ وَرُؤاهُ
فَيَنْبِضُ كُلُّ المدى مِنْ خِلالي...

******

هَكَذا ظَلَّ فِيَّ الزَّمانُ فَتِيًّا،
وَعاصَرْتُهُ دائِمًا في رَحيلي...
وَكُنْتُ، إِذا زَوَّجَتْني تَقاطِيعُهُ،
أَعْبُرُ الآخَرَ المسْتَحيلَ
لِيَغْدُوَ، بَعْدُ، زَميلي!
ولَكِنَّني
كُنْتُ أَحْصُرُهُ بَيْنَ عَقْلي وَقَلْبي
لِيَرْقى إِلَيَّ،
وَأُنْزِلُهُ في غِمارِ كِياني
لِيَغْدُوَ أَشْقَرَ مِثْلي
وَمِثْلَ الزَّمانِ الَّذي ٱشْقَرَّ بي

كَيْ يَكونَ مَثيلي...

هَكَذا صارَ بَيْني وبَيْنَ الزَّمانِ

قُصورٌ مِنَ الشِّعْرِ،

نَسْكُنُها،

وَنُسَوِّرُها بالرُّؤى

وَالخُلودِ الجَميلِ...

- ٤ -

ذَاتي الَّتي نَمَّيْتُها بِالشِّعْرِ
تَسْكُنُ عالَمي
وَتَفيضُ في ما حَوْلَها
لِتُؤَبِّدَ الأَشْياءَ حينَ تَمَسُّها،
وَالواقِعُ المَرْذولُ يَسْحَبُها إِلَيْهِ،
فَتَنْطَوي ذاتَيْنِ:
واحِدَةً تَمُدُّ بَياضَها وخُلودَها فَوْقَ المدى،
وَتَقُدُّهُ الأُخْرى بِنُقْصانِ الزَّوالِ.
وَعْيٌ رَهيبٌ ذَرْذَرَ النُّقْصانَ
في رَجْعِ التَّكامُلِ

فَاحْتَوى الذّاتَيْنِ في قَلْبي
صِرَاعٌ دائِمٌ يَنمو
عَلى حَدِّ المحالِ:
ذاتٌ تُؤَبِّدُ نَبْضَها العُلَوِيَّ
مِنْ فَوْقٍ،
تُوَحِّدُ نَفْسَها
في المطْلَقِ الأَبَدِيِّ،
وَالأُخْرى يُجَزِّئُها التَّكاثُرُ، تَحْتُ،
عاكِفَةً عَلى نُقْصانِهِ،
لَكِنْ تَتوقُ إِلى الكَمالِ!

******

كَيْفَ ٱصْطَبَرْتُ عَلى صِراعاتي!
فَآخَيْتُ الوِلادةَ وَالرَّدى،
وَتَجَمَّعَتْ ذَاتي بِحَدَّيْها
عَلى سَمْتِ المدى المفْتوحِ،
فَوْقَ الكَوْنِ،
فَاحْتَوَتِ المدى!
كَيْفَ ٱنْفَجَرْتُ مَعَ الصَّدى
فَتَوَزَّعَتْ كِسَري الزَّوايا،
وَٱرْتَدَيْتُ الأَقْنِعَهْ!
ثُمَّ ٱجْتَمَعْتُ
فَسالَ في حِبْري

رُؤايَ المبْدِعَهْ...
قبَضَتْ يَدايَ عَلى الضِّياءِ
فَعَصَّرَتْهُ،
وَسالَ مِنْها أَحْرُفًا خَفّاقَةً
تَنْمو إِلى الأَبَدِيَّةِ البَيْضاءِ،
تَحْمِلُ في قَرارتِها الَذينَ تَمَسُّهُمْ
فَيُؤَبَّدونَ مَعي،
وَيَنْسَحِبُ الصِّرَاعُ.
كُلُّ المدى يَنْداحُ مِنْ عَيْنَيَّ،
يَأْرَجُ فِي عُطورِ الخُلْدِ
حَيْثُ يَزولُ عَنْ ذاتي القِناعُ.
كُلُّ المدى مُتَقاطِعٌ
في ذاتِيَ البَيْضاءِ،
وَالشِّعْرُ المصَفّى
حامِلٌ راياتِهِ الأَلَقُ المَشاعُ.

وَأَنا الصُّعودُ إِلى مَعارِيجِ البَقاءِ،
أَنا ٱتِّحادُ الكُلِّ بالأَعْلى،
أَنا أُنْشودَةُ الوَصْلِ الَّذي جَمَعَ الزَّوائِلَ
بالمدى الأَبَدِيِّ
فانْكَسَرَ الزَّمانُ عَلى الخُلودِ،
وَخَطَّ أَحْرُفَهُ اليَراعُ!

- ٥ -

يَحْمِلُني أَلَمٌ مَرْصوفٌ في الوَقْتِ
إِلَى وطَني،
ويُطارِدُني...
يَعْجُنُ مِنْ ظُلُماتِ الحِقْدِ رَغيفًا لِلْحَرْبِ،
وَيَخْبِزُهُ في فُرْنِ الموْتِ،
وَيُطْعِمُهُ لِمِئاتِ أُلوفٍ
مَغْموسًا بالشَجَنِ...
وطَني...
أَرْحَلُ فيهِ عَيْنًا تُدْميها الرُؤْيا...
وَطَني...

وَجَعُ "الحَرْبِ" النّازِفُ
مِنْ خاصِرَةِ الزَّمَنِ المرِّ
يَجيءُ إِلَيْنا
وَيُعاوِدُنا
كَالشَّبَحِ الهارِبِ مِنْ أَعْماقِ جَحيمٍ فينا...
يأْتِينا، ويُطارِدُنا...
تُسْبى ذاتي
فِي رُؤْيا "الحَرْبِ"،
وَيَدْمَغُها النُقْصانُ —
تَصِيرُ شَظايا
بَيْنَ حُطامِ النّاسِ
وَنَزْفِ الزَّمَنِ المكْسورْ...
تَتَقَسَّمُ فِي الوَطَنِ المقْهورْ.
لا شَيْءَ...
سِوى الأَلَمِ المرْصُوفِ

عَلى أشْكالِ الموْتِ،

وذاتي

تَعْلَقُ بِالواقِعِ وَالموْتِ المحْرورْ...

لا شَيْءَ سِوى ذاتي

تَتَناثَرُ في سِجْنِ الزَّمَنِ المقْهورْ...

******

أَيُّها الشِّعْرُ،
لُذْتُ بِبُرْجِكَ
كَيْ أَسْتَرِدَّ ٱلْتِئامي،
وَأُفْلِتَ مِنْ شَرَكِ النَّقْصِ.
عَاوَدْتُ إِدْمانَ ذاتي،
وَآخَيْتُ فيها ٱنْتِصارَ الحضورْ،
وَعاوَدْتُ فيها مُعانَقَةَ الشِّعْرِ
يُدْخِلُني في ذُهولِ الشُّعورْ
أَبْيَضًا
مِثْلَ ثَلْجِ الخلودِ الَّذي وَشَّحَ القَلْبَ.
تَنْكَسِرُ "الحَرْبُ" فيهِ،

تَغيبُ...

تَصيرُ حُروفي

وَطَني،

في رُؤَايَ الَّتي تَتَعَدّى المدى، وكُشوفي...

أَيُّها الشِّعْرُ،

كُنْ ذَاتِيَ الأَبَدِيَّهْ

لِأُشَرِّعَ فِيَّ الغَرابَةَ

بابًا إِلى جَنَّةِ المسْتَحيلِ

وَأَرْفَعَها أَبْجَدِيَّهْ.

- ٦ -

يَدْخُلُ الحُبُّ إِلى قَلْبي
مَعَ الثَّلْجِ،
وَيَنْمو شَجَرًا أَبْيَضَ،
حَقْلًا مِنْ سَناءْ.
كُلَّما أَوْغَلَ فِي قَلْبي
يُوَشّيني
بِزَهْرِ المطلَقِ الصَّاهِلِ في السَّمْتِ،
وَيَرْويني الصَّفاءْ...
يَدْخُلُ الحُبُّ إِلَى قَلْبِيَ
ذَاتًا ثَانِيَهْ

فَأَضُمُّ الأَبَدَ الممتَدِّ فِي ذَاتِيَّ
حُلْمًا...
مِثْلَ لَوْنِ الماءِ
تَلْتَمُّ ثَوانيهِ
عَلى فَيْضِ الثُّلوجِ الحانِيَهْ.
يَدْخُلُ الحُبُّ إِلَى قَلْبي
فَذاتي ٱنْشَعَبَتْ أُخرى،
وَعانَقْتُ بِيَ الذَّاتَيْنِ
في مُطْلَقِيَ الصّافي —
أَنا... والآخَرُ المذْهولُ في ذَاتي
وَلَوْنُ الواقعِ المرفوعِ
نَحْوَ السَّرْمَدِيَّهْ.
أَنا والآخَرُ
أُعْطيهِ ٱكْتِمالَ الذّاتِ مِنْ ذاتي
فَيَعْلُو في المعاريجِ البَهِيَّهْ...

أَنْتِ، يا ٱلآخَرُ،
تَأْتِينَ مِنَ النّورِ
كَحُلْمٍ أَرْتَديهِ أَبْيَضًا
نَحْوَ ٱكْتِمالي...
وَتَجيئِينَ مِنَ الثَّلْجِ
وِشَاحًا لَوَّنَ الواقِعَ بالحُلْمِ،
وَآخى بَيْنَ ذاتي
وَٱكْتِمالِ الأبَدِ المرسومِ فِيها
في مَدى عَيْنَيْكِ،
يا مِعْرَاجِيَ الأسمى إِلى دَرْبِ الكَمالِ.
يَتُها الذّاتُ،

ٱسْتَقِرّي في رَذاذِ النّورِ:
شِعْري نُورُ عَيْنَيها
وَذاتِي ذاتُها...
كُلُّ ٱكْتِمالٍ، بَعْدُ،
يَأْتي أَبْيَضًا مِنّا،
وَمِنّا يَرْتَدي ثَوْبَ الجَلالِ.
وَبِنا
تَنْكَتِبُ الأَشْياءُ
فِي تَكْوِينِها الأَسْنى
وَيَطْوي الخُلْدُ صَفْحاتِ الزَّوالِ.

- ٧ -

رَدَدْتِ لي طُفولَتي.
كَأَنَّني مِنْ أَلْفِ عامٍ
نِمْتُ في عَيْنَيْكِ،
وَٱسْتَيْقَظْتُ بَغْتَةً
فَلامَسَتْ رُوحي السَّماءْ —
صَفَّيْتُ ذاتي فيكِ،
وَٱخْتَزَنْتُ مِنْ عَيْنَيْكِ
ما يَشِعُّ في التَّكْوينِ؛
هَيَّأْتِ التُّرابَ في قَرارَتي
لِوَرْدَةِ البَقاءْ.

صارَ الزَّمانُ لَحْظَةً وَأُمْسِيَهْ.

صارَ الفَضاءُ أُغْنِيَهْ...

صارَتْ قَصيدَتي

حُضورَكِ الشَّفيفَ في العَلاءْ...

وَكُلَّما تَدَفَّقَتْ يَنابِيعُ الرُّؤى

تَفَجَّرَ الزَّمانُ في يَدَيَّ

أَشْقَرًا،

وَعادَ مِنْ مَتاهَةِ العَدَمْ.

وَكُلَّما لامَسَ نورُكِ المفْتوحُ وردَةً

تَغيبُ في الحُبورِ وَالبَهاءْ،

يَرْسُمُها المِدادُ في القَلَمْ

أُسْطورةً رائِعَةً

كَقِصَّةِ الضِّياءْ!

******

رَدَدْتِ لي طُفولَتي —
صِرْنا مَعًا طِفْلَيْنِ
هَائِمَيْنِ
في حَديقَةِ السَّناءْ،
روحًا تُظَلِّلُ الفَضاءْ،
تَخرُجُ مِنْ تواتُرِ الزَّمانِ والمكانِ،
تَسْحَبُ الزَّمانَ وَالمكَانَ
في غَيْبوبَةِ الأَبَدْ —
نَصيرُ كُلُّنا أُنْشودَةً
وَواحِدًا أَحَدْ.

***

الفَجْرُ يزْرَعُ الزُّهورَ
في الأَماني
وَالعُمْرُ قِصَّةٌ،

شُبّاكُها ذِكَرْ...

وَأَنْتِ فِي كِياني

نِهايَةُ السَّفَرْ...

***

الفَجْرُ فِينا غَدُنا المفتوحُ

خارجَ الزَّمانِ،

ونَحْنُ خارجَ القَدَرْ،

وَالشِّعْرُ خَطْرَةٌ

حُدودُها بِلا مَكانِ

تُكَوِّنُ البَشَرْ...

***

الشِّعْرُ فِينا يَوْمُنا وَغَدُنا،

وَالصَّمْتُ وَالضَّجِيجُ،

وَالبَياضُ وَالسَّوادْ...

فَضاؤُنا اللامُنْتَهي،

وَحَدُّنا،

يَخْتَصِرُ المطْلَقَ

في هُنَيْهَةٍ مِدادْ...

- ٨ -

ماذا أُحَمِّلُني مِنِ ٱسْمٍ؟
أَيَّ عَيْنٍ
أَرْقُبُ الدُّنيا بِها؟
مِنْ أَيِّ بابٍ أَدْخُلُ الحُلْمَ السَّحيقَ
وَكُلُّ بابٍ شَرَّعَتْهُ الذّاتُ لي؟
وَتَطيرُ بي رُؤْيا إِلى ذاتي
فَأُبْصِرُ كُلَّ شَيْءٍ أَبْيَضًا،
وإذا الظَّلامُ
يَنْشَقُ عَنْ نورٍ سَحيقٍ.
كُلُّ ما حَوْلي يَنامُ،

وَالذّاتُ في الأَبَدِيَّةِ البَيْضاءِ
تُبْصِرُ مِنْ خِلالِ شُعورِها
وَتَحُسُّ ما كانَ الوجودُ
وما يَكونُ.
لا شَيْءَ مِنْ حَوْلي
سِوى زَهْوِ القَصيدةِ تَكْتُبُ الدُّنْيا
وَيُنْزِلُها على الوَرَقِ الفُتونُ.
ما زِلْتُ أَجْهَلُ مَنْ أَكونُ!
ما زِلْتُ مُنْجَذِبًا إِلى أَرْضِ التُّرابِ،
يَعودُ بي، مِنْ فَوْقُ،
نَحْوَ الواقِعِ المعْجونِ بِالصَّلْصالِ،
نَحْوَ زَمانِهِ العَرَضِيِّ،
وَالدُّنْيا تُقَيِّدُني إِلى أَسْرِي،
وَتَحْضُرُني المَنونُ...
لَكِنَّني أَنْشَدُّ

نَحْوَ لَطافَةِ الأَعْلى،
وَأُمْسِكُ بِالرُّؤى تَنْأَى
وَتَسْحَبُني إِلى خَلْفِ الوُجودِ،
إِلى ٱمْتِدادٍ شاسِعٍ كَالنُّورِ،
أَشْقَرَ مِثْلَ سُنْبُلَةٍ،
وِيَحْمِلُني الجُنونُ
فِي جَانِحٍ
يَرْقى إِلى خَلْفِ الحدودِ...
فَواقِعي سِجْنٌ تُرابِيٌّ
على الوَقْتِ المديدِ —
أَنا التَّغَيُّرُ فِي مَتاهاتِ السُّؤالِ،
أَنا هَسيسُ الخَلْقِ
وَهْوَ يَغُلُّ فِي التَّكْوينِ
مُرْتَدِيًا إِزارَ المسْتَحيلِ،
أَنا الضَّجيجُ...

أَنا السُّكونُ...

آتي وأَمْضي...

ثُمَّ آتي...

ثُمَّ أَمْضي عَبْرَ دائرةِ الوجودِ

وَلَحْظَةِ الأَبَدِ العَظيمةِ،

ثُمَّ يَكْتُبُني الفُتونُ...

أَنا لَحْظَةُ ٱخْتَفَتِ المسافَةُ

في ٱبْيِضاضِ الفَوْقِ.

لَمْ أُولَدْ مَعَ الأَشْياءِ،

لَكِنِّي ٱنْبَعَثْتُ بِذاتِيَ الأَبَدِيَّةِ الشَّقْراءِ

يَوْمَ تَدَفَّقَ الشِّعْرُ الإِلَهِيُّ المديدُ —

أَنا الصُّراخُ،

أَنا قَوافي الشِّعْرِ

يَسْقُطُ دُونَها المَوْتُ الحَرونُ...

مِنْ كُلِّ ريحٍ رُؤْيَتي،

مِنْ كُلِّ زَوْبَعَةٍ
تَحَدَّتْ هَدْأَةَ الكَوْنِ البَليدِ.
أنا ٱصْطِفافاتُ الخَليقَةِ
وَهْيَ تَنْسُلُ في المعاني
حِينَ يَخْطِفُها المِدادُ
إلى ٱنْبِلاجِ اللازَمانِ
وَالشِّعْرُ يَفْتَحُ أُفْقَها
فَتَسيحُ في أَبَدِيَّةِ الأَعْلى
وَيُطْلِقُها الشُّعورُ بِلا عِنانِ...

- ٩ -

تُشْرِقُ الشَّمْسُ ثُمَّ تَغيبُ...
وَتَبْقى كَذَلِكِ مُنْذُ الأَزَلْ؛
وَالنَّهاراتُ تَبْدو وَتَرْحَلُ
حِينَ يَحُلُّ سِتارُ الظَّلامِ
وَتَأْنَسُ لِلَّيْلِ عَيْنُ البَرايا،
وَالمدى لَمْ يَزَلْ
مِثْلَما كَانَ...
مُنْذُ ٱبْتِداءِ الحَكايا...
تُولَدُ النّاسُ
ثُمَّ تَموتُ...

وَتَبْقى هُنا الذِّكْرَياتُ
ٱلتي سَكَنَتْ في القُلوبِ،
وَيَبْقى الوُجودُ كَما كانَ
مُنْذُ ٱبْتِداءِ الخَليقَةِ،
تَبْقى البَرايا بَرايا
تَحُلُّ وَتَرْحَلُ...
لا شَيْءَ، ثَمَّ، جَديدٌ إذًا،
وَالحَياةُ ٱنْتِظارٌ طَويلٌ
يُعاوِدُ ما كانَ
أَوْ سَيَكونُ...
ٱلْحَياةُ تُشيرُ إِلى نَفْسِها!
غَيْرَ أَنَّ الزَّوالَ يُحاصِرُها
في جَميعِ الزَّوايا.
فَيا عالَمي،
كَيْفَ أَبْقى

عَلى جَانِحِ الزَّمَنِ المتَحَرِّكِ
مِثْلي؟
وَمِثْلي أُصَوِّرُ هذا الوجودَ كَثيرًا،
وَلَكِنَّهُ واحِدٌ؟
كَيْفَ أَحْفَظُ قيمَةَ هَذا الوُجودِ بِقَلْبي
وَأُعْطِيهِ مِنْ صِفَتي
لِتَكونَ لَهُ ذاتُهُ،
وَتَكونَ لَهُ سِمَةٌ وَهُوِيَّهْ؟
إِنَّني راحِلٌ في الحُروفِ
أُحَرِّرُها
كَيْ تُحَرِّرَ هذا الوُجودَ
وَتَحْمِلَهُ مِنْ رُتوبِ الزَّمانِ
إِلى وَحْدَةِ الأَبَدِيَّهْ.

******

أَمْسَحُ الكَوْنَ بِالشِّعْرِ...
أُعْطِيهِ لَوْنًا
وَضَوْءًا
وَمَعْنًى...
أَرَى مِنْ خِلالِي دِلالاتِهِ،
وَظِلالَ المعاني بِعَيْنَيْهِ.
كُلُّ المدى غارِقٌ فِيَّ
يَغْسِلُهُ الشِّعْرُ...
يُشْرِقُ عَبْرَ ضَجيجِ السُّكونِ بِقَلْبِي،
وَكُلُّ شُروقٍ جَديدُ.
ضَاقَ فِيَّ المكانُ

وَضاقَ الزَّمانُ
فَلُذْتُ بِذاتي
لِيَكْبَرَ هذا الوُجودُ...
أُغَطّيهِ بالشِّعْرِ
يَسْحَبُهُ خَارجَ المنْتَهى،
فَوْقَ بُرْجِ الزَّمانِ
وَأَحْصِنَةِ الوَقْتِ،
أُعْطيهِ رُوحي
لِتَمْسَحَ عَنْهُ غُبارِ الصَّدَأْ،
وَأُحَصِّنُ بِالزَّهْوِ هذا الملأْ...
وَأَرْفَعُهُ مِنْ حَضِيضِ التُّرابِ
إلى مُنْتَهى النّورِ،
مِنْ قَلْبِ هَذا الفَراغِ
إلى ضَوْءِ ذاتي
لِيَنْهَلَ مِنْها المعاني

وَتَسْقُطَ فِي ناظِرَيْهِ الحُدودُ،
وَيَبْدَأُ رِحْلَتَهُ فِي السَّناءِ
تُحَرِّكُ خَطْواتُهُ نارُ ذَاتي،
وَيَرْفَعُهُ فِي السَّماءِ الخُلودُ.

- ١٠ -

غَنّي عَلى الأُفْقِ يَحْلُ الأُفْقُ في الأَبَدِ،
قَصيدَتي، وَٱحْمِلي ذاتي إِلى الخُلُدِ.
ذاتي رَنينٌ عَلى الأَوْتارِ، يَرْفَعُها
نَفْحُ الأَعالي، وَصَوْتُ اللهِ في الجَلَدِ.
نُورٌ مِنَ القَبَسِ الأَعْلى، تَنَزَّلَهُ
إِلى التُّرابِ كَثيرُ النَّقْصِ وَالعَدَدِ؛
إِذا يَمُرُّ بِها ظِلُّ الوُجودِ فَقَدْ
صارَ الوُجودُ وُجودًا نُسْغُهُ صَمَدي.
أَنا المعاني، وَسِرُّ الحَرْفِ يُعْتِقُني
فَأَرْفَعُ الخَلْقَ نَحْوَ الضَّوْءِ وَالرُّشُدِ.

أَنا الغُروبُ، أنا وَحْيُ الشُّروقِ مَتى
سالَ الكَلامُ عَلى آفَاقِهِ الجُدُدِ.
أَنا الَّذي يَهِبُ الدُّنْيا مَعانِيَها،
وَيُسْكِنُ الحُلْمَ في أَوْلادِهِ المُرُدِ.
ما الموْتُ؟ ما البَعْثُ؟ ما كُلُّ الحياةِ إِذا
لَمْ يَخْرُجِ الكُلُّ مِنْ لَحْني فَيَتَّقِدِ؟

****

غَنّي عَلى الأُفْقِ يَحْلُ الأُفْقُ مُنْتَشِيًا،
قَصيدَتي، وَٱحْمِلي ذاتي إِلى الخُلُدِ.

- ١١ -

هذا هُوَ اللَحْنُ الأَخيرُ
فَلَيْسَ لي لَحْنٌ سِواهُ.
هَذا هُوَ اللَحْنُ الأَخيرُ
فَلَيْسَ يَعْزِفُهُ كَمانٌ أَوْ أَداةٌ.
كُلُّ ما في القَلْبِ يَصْعَدُ نَحْوَهُ
وَيَروحُ مُقْتَفِيًا صَداهُ.
يَأْتي وَيَذْهَبُ
مِنْ خِلالِ قَرارَتي،
وَيَذوبُ في عَرَقِ الحُروفِ
وَفي اللُقَيّا تَصْطَفيها اللانِهايَةُ

مِنْ تَأَبُّدِ لَحْنِها،
وَتَغُلُّ بَيْنَ حُروفِيَ البَيْضاءِ
إِيقاعًا وَأَخْيِلَةً،
وَيَحْمِلُها المَتاهُ
لِتَذوبَ في قَلْبِ الوُجودِ
شُبوبَ موسيقى
تَحِلُّ بِها الرُّؤى
وَتَضوعُ في صُوَرٍ وَأَخْيِلَةٍ،
فَيَنْكَسِرُ الغِيابُ.
أنا هُنا...
بَيْني وَبَيْني كُلُّ أَسْئِلَةِ الوُجودِ:
أَنا هَباءٌ مِنْ سَناءٍ
جَمَّعَتْهُ الروحُ مِنْ عَدَمٍ
وَشَدَّتْهُ إِلى أَبَدِيَّةِ الدُّنيا
فَطارَ بِها سَناهُ.

أنا هَهُنا...
بَيْني وَبَيْني كُلُّ أَسْئِلَةِ الوُجودِ
وَكُلُّ أَجْوِبَتي مدًى مَفْتوحةٌ آفاقُهُ.
هذا الوُجودُ يَكونُ إنْ أَنا كُنْتُ.
هَذا الكَوْنُ أَصْنَعُهُ
وَأَخْلُقُهُ وَأَهْدِمُهُ،
وَلَكِنّي صَغيرٌ كَالهَباءِ
وَهَشَّةٌ كَيْنونَتي،
وَالرّوحُ تَحْمِلُني
إلى أَبَدٍ أَراهُ.
كُلُّ التَّناقُضِ فِيَّ،
وَٱسْمي وَحْدَهُ باقٍ:
تَشُدُّ بِيَ القَصيدَةُ في مَعاريجِ البَقاءِ.
أَنا الإجابَةُ وَالسُّؤَالُ،
أَنا النِّهايَةُ وَالبَقاءُ،

أَنا الحُضورُ مَدى الغِيَابِ،
أَنا الَّذي أُعْطي الوُجودَ رُموزَهُ
فَيَكونُ مَعْناهُ تراكِيبًا
تُرَدِّدُها الشِّفاهُ –
سَتَظَلُّ نَفْسي في "أَنا"هُ.

******

هَذا هُوَ اللَحْنُ الأَخيرُ.
تَسِيلُ ذاتي في القَصيدَةِ.
تَكْتُبُ الأَشْياءَ.
تَخْلُقُها.
وَدوني كُلُّ شَيْءٍ باطِلٌ.
ما قِيمةُ الأَشْياءِ
إِنْ أَنا لَمْ أُعَمِّدْها بِذاتي؟
ما البَقاءُ وما الزَّوالُ؟
ذاتي أَنا كُلُّ الوُجودِ
وَدونَها لا شَيْءَ فيهِ نَبْضُهُ،
لا شَيْءَ في عَرَضِ البَرايا قَائمٌ

إِلّا إِذا كَوَّنْتُهُ
لِيَظَلَّ يُحْييهِ الجَمالُ.
كُنْتُ السُّؤالَ السَّرْمَدِيَّ
فَلا جَوابَ لَهُ،
وَلَكِنَّ الحُروفَ تُضيئُهُ
وَيَظَلُّ يَكْشِفُهُ السُّؤالُ...
صَوَّرْتُ آدَمَ باحِثًا عَنْ ذاتِهِ،
وَسُؤَالُهُ مِنْ أَلْفِ أَلْفٍ؛
ثُمَّ سَلَّمْتُ الملائِكَ بابَ جَنَّتِهِ.
نَزَلْتُ إِلى المدى الأَدْنى،
وَجُبْتُ الكَوْنَ مَعْ نوحٍ بِرِحْلَتِهِ،
وَضاقَ بِيَ المجالُ.
وَرَحَلْتُ مَعْ جَلْجامِشٍ في بَحْثِهِ،
فَرَأَيْتُني فِي كُلِّ مُعْضِلَةٍ لِأَنْكيدو،
وَسامَرْتُ الزَّمانَ

فَظَلَّ دونَ إِجابَتي،
وَظَلَلْتُ أُفْرِغُهُ وَأَمْلَأُهُ بِذاتي
حالِمًا في الحَرْفِ...
كُنْتُ أَنا القَصيدَةَ
وَالهُنَيْهاتِ الّتي فارَتْ
عَلى نَضْحِ الهَباءِ.
تَجاذَبَتْني قُبَّةُ الدُّنيا
فَحَطَّمْتُ الزَّمانَ
وَصِرُتُ أَصْفى مِنْ مَخاليقِ الزَّوالِ.
سَكَنْتُ في شِعْري
وَأَدْهَشَني المحالُ.
ما زِلْتُ أَقْرَأُ فِيَّ مَلْحَمَتي وَأَكْتُبُها،
وَذاتي تَعْبُرُ التَّاريخَ
مِنْ زَمَنٍ إِلى زَمَنٍ،
وَتَسْحَرُني ذُراهُ.

سَأَظَلُّ أَعْزِفُ لَحْنَ مَلْحَمَتي
لِيَبْقى الوَقْتُ مَهْزومًا
وَيُشْدَهَ في الحُروفِ
وَفي رُؤاهُ.
هذا هوَ اللَحْنُ الأَخيرُ
فَلَيْسَ يُطْرِبُني سِواهُ.

- ١٢ -

أَخْتُمُ أَيّامي بِالشِّعْرِ وَأَبْدَأُها...
وَأَرى ذاتي تُشْرِفُ مِنْ فَوْقُ
عَلى هَذا الكَوْنِ.
أَرى ذاتي
تَتَغَلْغَلُ في نَبَضاتِ الأَشْياءِ وَتُشْعِلُها
وَتُحَوِّلُها
لُغَةً تَعْزُفُ أَحْرُفُها
أَوْتارَ الخَلْقِ
عَلى تاريخٍ لا تاريخَ لَهُ،
وَأَرى كَلِماتي

نَبْضًا يَتَجَمَّعُ في الرُّؤْيا،
وَيُجَمِّعُ فيها أَلْحانَ حَياتي...
وَحياتي
لُغْزٌ مَرْمِيٌّ في عَيْنِ الأَبَدِ المفْتوحِ
عَلى حُلُمِ الأَشْياءِ.
أَرى ذاتي لُغَةً
أَصْداها مِنْ وَجَعِ الوَحْيِ،
وَمِنْ خَتْمِ المطْلَقِ
فِي سَمْتِ التَّكْوينِ،
تُحاوِرُ أَغْصانَ الجَنَّةِ
في عَيْنِ اللهِ،
تُحاوِرُ لَوْنَ الماءِ
وَثَلْجَ النّورِ المتَساقِطِ
فَوْقَ المخْلوقاتِ.
وَأَرى الدُّنيا ظِلًّا لي

يَتَراقَصُ حَوْلَ عَلاماتي...
كُلُّ الأَشْياءِ تُحاوِرُني،
وَأُحاوِرُ فيها نُسْغَ الكَوْنِ،
وَأَكْتُبهُ كَالرَّقْصِ المشْبَعِ بِالأَلَقِ.
أَكْتُبُ أَحْلامَ الشَّفَقِ،
وَأُوَسِّعُ موسيقى الفَوْقِ بِشِعْري
يَتَحَرَّكُ بَيْنِ اللَحظاتِ.
وَأَرى ذاتي
تَتَقَمَّصُ كُلَّ الموجوداتِ،
وَكُلَّ أَريجِ الزَّمَنِ
ٱلخارِجِ مِنْ هَذا التّاريخِ.
أَنا الصَّوْتُ الآتي مِنْ فَوْقُ،
أَنا الماضي وَالحاضِرُ وَالآتي...
وَأَنا آلِهَةُ الأُولَمْبِ
وَمُطْلَقُ أَفْلاطُونَ

وَنارُ بْرومِثْيوسٍ تَصْلُبُهُ
فَوْقَ صُخورِ الوَحْيِ،
أَنا روحُ التّاريخِ الصّاهِلِ
في نارِ مَجَرّاتي...
وَأَنا صَوْتُ أَثيرِ الأَرْواحِ
يُكَلِّلُها إِلْهامُ الرُّؤْيا السِّحْرِيَّهْ.
ما زِلْتُ أُغَنّي في أَحْرُفِيَ النّورانِيَّهْ...
سَيَظَلُّ غِناءُ الحَرْفِ
يَطيرُ بِأَحْلامي
خارِجَ هَذا الكَوْنِ
إِلى القِمَمِ الثَّلْجِيَّهْ.
سَتَظَلُّ قَصيدَتِيَ البِكْرُ وِشاحي،
وَمِدادُ الروحِ فُتُونَ صَباحي،
وَالشِّعْرُ دُروبَ الأَبَدِيَّهْ.

(١٥ – ٣٠/ كانون الثاني/ ٢٠١٦)

فهرس المحتويات

كانَتِ المعَلَّقاتُ عندَ العربِ، في العَصرِ الجاهِليّ، مِنْ أنْفَسِ القصائدِ التي كتبَها الشعراءِ. والمعلقةُ قصيدةٌ مُسْتَمَدّةٌ مِنْ حياةِ صاحبها، وكثيرًا ما تكونُ من مراحلَ عديدةٍ عاناها وَمَرَّ بها. فهيَ مرتبطةٌ بشكلٍ وَثيقٍ بأحداثِ حياته. وَهي، بذلك، جزءٌ من وِجْدانِه، وقطعةٌ من تُراثِهِ تُمَثِّلُ أَغْنى ما عندَه، وأَثْمَنَ ما وضعَهُ مِنْ شِعْر. وهي عبارةٌ عَنْ قصيدةٍ طويلةٍ...

لهذا السبب اخترتُ المعلقاتِ عناوينَ لدواويني الخاصّةِ الأربعةِ حتّى الآنَ، تناولْتُ فيها أحداثًا كبيرةَ القيمةِ مِنْ حَيَاتي، وتأمُّلاتٍ في جوهرِ الوجودِ والحياةِ والإبداعِ والكتابةِ، مرُكِّزًا على فكرةِ أنَّ الشعرَ أقوى من الزَوال، ويجعلُ مَنْ يَكتبُهُ يُسَيطرُ على الحياةِ به، ويَتَحدّى الموتَ، لأنَّ الفنّانَ الأصيلَ عمومًا، والشاعرَ الأصيلَ خصوصًا، يَخْلدُ من خلالِ إبداعاتِه، فيبقى حيًّا، في حينِ أنَّ الآخرين محكومون بالزوال.